THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

قصة الكاتب الأرمني الكبير

هاكوب باروتيان

المتسولون الشرفاء

نقلها إلى العربية بتصرف

نزار خليلي

الرسوم بريشة

صاروخان

المتسولون الشرفاء

المتسوّلون الشرفاء

للكاتب الارمني الكبير

الكوب باروتيان

ترجمة : نزار الخليلي
مراجعة : خليل الهنداوي

نشر وتوزيع
مكتبة الشرق بحلب
عبد السميع عفش
هاتف ١٣٧٧٣ ـ ص.ب ٤١٥

893.7B268
T

00221M

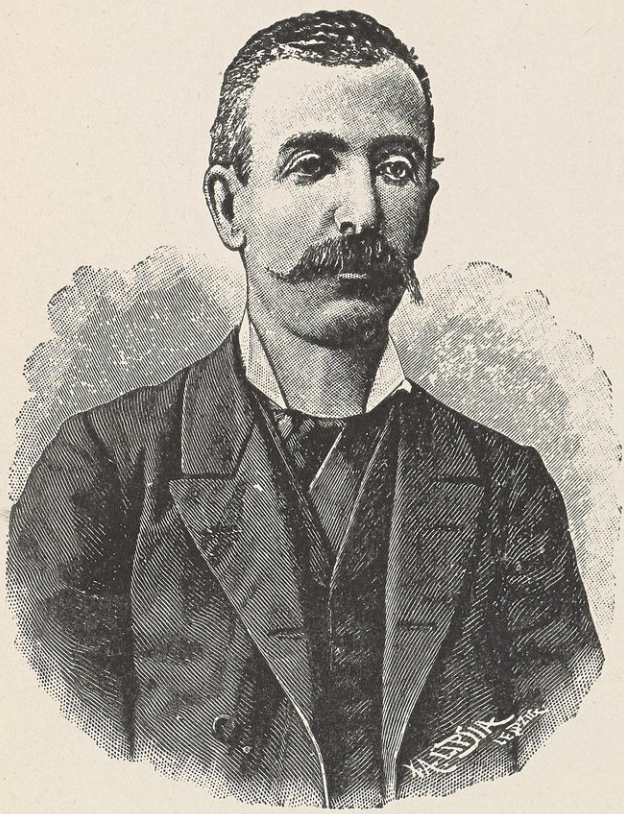

هاکوب بارونیان

الاهداء

الى استاذي الجليل خليل هنداوي

الذي بفضله وبارشاده اقدمت على ترجمة هذه القصة ..

مقدمة

هذا كتاب قديم لم يتقادم

فمنذ كتابته قبل مائة عام تقريباً أعيد طبعه مرات عديدة في استانبول وفي المهجر وفي ارمينيا وترجم الى بعض اللغات الحية . ولقد وضع بعضهم القصة في قالب مسرحي بقليل من التصرف وكان آخرهم وارتان عجميان .

والقصة بموضوعها غير مقيدة بأمة بحد ذاتها أو بزمن فالاشخاص انفسهم موجودون في كل مكان وزمان بعد تغيير الاسماء .

أما الكاتب هاكوب بارونيان فقد عاش في القرن التاسع عشر وعرف بالكاتب الساخر . وكان قلمه الحاد يتناول جميع من عاشوا في ذلك العصر لم يرهبه سجن ولا تهديد . ولقد اصدر عدة صحف منها يومية ومنها اسبوعية كانت تغلق جميعها حين يتناول فيها بعض اصحاب النفوذ في الحكومة العثمانية . لذلك لم يكتب لصحفه ان تحيا اكثر من عام واحد أو أقل منه بكثير .

وأراني أميل الى ذكر كاتبنا الساخر الاستاذ حبيب كحالة صاحب مجلة المضحك والمبكي في دمشق لاعطي صورة حية عن هاكوب بارونيان .

واعتقد ان اغلبية الشعب العربي السوري يعرفون الظروف التي مر

بها الاستاذ حبيب كحاله ابان الاحتلال الفرنسي وحتى يومنا هذا. وكان رائده طيلة حياته منذ شبابه وحتى الآن قول الحق وليس غيره لم يرهبه استعمار ولا استبداد وكان اذا ما لمس ضغطاً عليه من بعض الحكومات التي توالت على البلاد آثر تعطيل مجلته على التزلف والتملق لهذه الحكومة أو لتلك.

وهكذا كان بارونيان وهذه قصته اكبر برهان على ما كانت عليه نفسه الثورية، وآمل ان اكون قد نجحت في نقلها الى العربية والله من وراء القصد.

المترجم
نزار خليلي

5022M 2-2565 MB

أ

في عام ١٨٧٠ ولا اذكر كم ينيف ، وفي الحادي والثلاثين ـ عفواني الثلاثين من شهر ايلول ، إذ ليس لشهر ايلول سوى ثلاثين يوماً ـ رست الباخرة القادمة من طرابزون في ميناء استانبول ونزل منها رجل معتدل القامة ممتلىء الجسم ملتف بمعطف طويل عريض ، وبدأ يجمع صناديقه التي انزلت حديثاً من الباخرة .

كانت تزين وجهه عينان ضخمتان سوداوان ، يظللهما حاجبان كثيفان ، واذنان واسعتان ، وانفان . . . لا ، انف واحد ظننته انفين لان مكانه يتسع لانفين ، ولأن ضخامة منخريه تلفت النظر . وله نظرة لو رآها السيد ه . فارتوفيان لسأل صاحبها : « كم تريد اجرة شهرية لتلعب في السيرك الذي اديره دور الابله ؟ » .

ولما اطمأن على صناديقه وفراشه المحزوم ببساط من الصوف ، اخرج كيس نقوده ودفع اجرة امتعته وسفره بالباخرة ثم نادى يطلب حمالاً . فجاءه على النداء خمسة حمالين ؛ وهذا امر طبيعي ، اذ لو نادى خمسة لجاءه عشرون حمالا وذلك حسب العادة المتبعة في العاصمة استانبول .

ـ اين تذهب ، اغا ؟ سأله أحد الحمالين وقد وضع رجله على أحد الصناديق كأنه امتلكه .

فاجاب الرجل الضخم :

ـ أريد شارع بيرا ، زقاق الزهور رقم ٢

ـ حسناً ، فهمت شارع بيرا زقاق الزهور ، رقم ٢ ... انه شارع راق، فال الحمال ذلك ثم حمل الصندوق على كتفه ومضى .

ـ انا أيضاً أعرف شارع بيرا ، زقاق الزهور . قالها حمال ثان وحمل صندوقاً آخر وسار باتجاه شارع بيرا .

ـ انني اذهب كل يوم الى زقاق الزهور . قالها حمال ثالث ورفع الفراش على ظهره واسرع وراء الآخرين .

حدث كل ذلك بسرعة اذهلت الرجل الذي أخذ يتلفت حوله باحثاً عن الحمالين الذين اختفوا بين الجماهير المحتشدة على الرصيف . ثم صاح وهو يضرب الارض بقدميه :

ـ ما هذه الوقاحة ؟ اين ذهبوا بصناديقي وفراشي ؟ بأي حق يتدخلون في شئون صناديقي وفراشي ؟ ما اصفق وجوه أهل هذه البلدة كلما وجدوا شيئاً على الارض حملوه وذهبوا به .

وفي هذه اللحظة بالذات قال الحمالان الباقيان :

ـ اننا نعرف كذلك زقاق الزهور ، آغا ، اعطنا شيئاً نحمله لك اليه .

فاجابهما وقد انتفخت اوداجه من الغضب :

ـ اذهبا الى الجحيم . انتما وزقاق الزهور .

وابتعد الحمالان وهما يضحكان ، أما الرجل فقد بدأ يلحق بمن حملوا صناديقه ، ولكنه توقف حين اعترض طريقه رجل طويل نحيل صغير العينين مرتفع الكتفين ، وتقدم منه مصافحاً ، ثم اخذ يفرك كفيه وعلى شفتيه ابتسامة غامضة وقال :

أنت ابيسوغوم اغا ؟ متى وصلت ؟ وعلى أية باخرة ؟ كيف حالك ؟ وكيف حال اخيك ؟

ـ انت ابيسوغوم اغا؟ متى وصلت ؟ وعلى اية باخرة ؟ كيف حالك ؟ كيف حال اخيك ؟ كيف تسير الامور في طرابزون ؟ كم سعر الخبز هناك ؟ هل نزل مطر في الايام القليلة الماضية في بلدكم؟... اهلا ابيسوغوم اغا ... اهلا ...

فاجاب الرجل الملتف بالمعطف دون أن يعرف شيئاً عن الواقف امامه :

ـ انا ابيسوغوم اغا ، وصلت توا ، جئت على باخرة تركية ، انا بخير ،اخي أيضاً بخير ، والامور تسير على ما يرام في طرابزون ،والخبز بقرش واحد ، ولم ينزل مطر في بلدنا .

ـ ارجو كم العفو ، لانني لم اتمكن من استقبالكم عند الباخرة، مع انهم كتبوا لي من طرابزون يعلمونني بحضوركم حتما هذا الاسبوع...

ـ لا بأس ، أنا لا اهتم بهذه الامور .

ـ الحق يقال ان العاصمة محظوظة لاستقبالها مواطناً محترماً ، شابا ممتازاً حر التفكير ...

ـ صناديقي ...

ـ ذا قلب طيب وروح خفيفة ...

ـ الحما ...

ـ وطنيا متحمساً ...

ـ .. لون ...

ـ محباً لبلاده متعلماً مثقفاً ...

ـ اخذوا صناديـ ...

ـ اديباً ...

ـ .. قي وذهبوا ...

ـ سليم الطوية ، راجح الرأي ، بهي الطلعة .

فاجاب ايسوغوم اغا وقد بدأ يمشي ليبحث عن الحمالين :

ـ صناديقي لا تحتوي على هذه الاشياء .

ـ انك لا تعرفني طبعاً ، ولكنني اعرف عنك الشيء الكثير : فأبوك المرحوم كان مشتركا في صحيفتي ، وكان رجلاً طيباً يتصدق على الفقراء ، ويزوج الفتيات الفقيرات ويحسن الى المسيئين اليه . يجب أن يعيش امثال هذا الرجل الكريم ، ولكن ما الفائدة ، يأخذ الموت القاسي خيـار الناس ويترك اشرارهم ليملأوا الارض فساداً ، على أن الاجدر بنا الآن أن نترك الراحلين ، ولنتكلم بشيء آخر .

هل ارتحت في سفرك على هذه الباخرة ؟

فاجاب ايسوغوم اغا وهو يوسع خطاه :

ـ ارتحت كثيراً ، واكلت طيباً ، وشربت ونمت

فقال الصحفي وهو يسرع وراءه :

ـ لو لم تكن مرتاحا لكتبت في عدد الغدمن صحيفتي ما يلفت انتباه اصحاب الباخرة .

ـ متشكر .

ـ قل لي ارجوك ، كم تبلغ من العمر ؟

ـ اربعين .

ـ اظنك تعمل في التجارة ؟

ـ نعم ، ان كنت تريد ان تستخرج لي هوية شخصية ، فانا اعفيك من هذه المهمة لأن عندي واحدة .

ـ كلا ، بل سأكتب في صحيفتي غداً أنه وصل قادماً من طرابزون الوجيه ابيسوغوم اغا التاجر الكبير ، المعروف لدى مواطنينا بمعرفته للغات واسرار التجارة . الا تتكلم العربية ؟

ـ لا .

ـ الفرنسية ؟

ـ لا .

ـ الانكليزية ؟

ـ لا .

ـ الالمانية ؟

ـ لا .

ـ لا بأس ، سأكتب انك عالم باللغات وسأمدحك كثيراً .

ـ هل تكتب اسماء كل من يحضرون الى استانبول في صحيفتك؟

ـ الوجهاء امثالك فقط .

ـ والذاهبين من استانبول أيضاً ؟

ـ طبعاً اذا كانوا من كرام الرجال .

ـ اكتب اسمي أيضاً اذن ، فانا مواطن محترم ، املك في بلدتي مزارع واسعة وبقراً وغنماً وحيوانات شتى ... اكتب كل هذا .

قال ذلك وعلى وجهه علامات تنبيء من يراها انه سينال ربحاً كبيراً من نشره هذه المعلومات .

ـ لا تهتم أبداً . لأنني اكتب كل هذا لأريح ضميري وأفيك حقك من الواجب .

وهل يمكنك ان تكتب في إحدى زوايا صحيفتك ان لي عدة خدم أيضاً ؟

ـ لِمَ لا ؟

ثم سأله ابيسوغوم اغا وقد نسي كل شيء عن صناديقه :

ـ وهل يجب ان تكتب أن عندي ساعة واسورة ذهبيـــة ، ولكنني لم احملهما في الباخرة خوفا من أن تسرقا .

ـ لا ضرورة لكتابة هذه الاشياء

ـ ليكن ما تريد ، على الا تنسى كتابة جميع اقوالي السابقة في صحيفتك ليقرأها الناس

ـ هذه فكرتي أيضاً .

ـ اكتب كل ذلك بحروف كبيرة .

ـ باكبر الحروف طبعاً ؟

ـ انكم تكتبون اياب وذهاب الاغنياء فقط اليس كذلك ؟

ـ طبعاً .

ـ اذا كنتم تكتبون اسماء الفقراء أيضاً ، فلا أريد أن يكون اسمي...

ـ قطعا أبداً ، اننا لا ننشر اسم من لا يملك مالاً ولو دفع الف ليرة لبناء مدرسة .

ـ يظهر اذن ، انك تنتظر هنا كل مساء لترى من يحضر ومن يغادر استانبول من الاغنياء فتنشر اسماءهم ليعرف الناس من جاء ومن ذهب ... هذا يعني انني سأقرأ اسمي في صحيفتكم غداً حتما .

ـ نعم ، اعطني عنوانك لارسل اليك نسخة من الصحيفة .

ـ شارع بيرا ، زقاق الزهور ، رقم ٢

فاخرج الصحفي ورقة من جيبه سجل عليها عنوان ابيسوغوم اغا

ـ أرسل الصحيفة غداً قبل ان يبزغ الفجر لاقرأ اسمي فيها .

ـ بل سأرسلها عند المساء ، لأن صحيفتي تصدر كل يوم مساء .

ـ كم اكون سعيداً ، لو صدرت الصحيفة في الصباح... ومع ذلك لا بأس ، لتكن في المساء ما دمت سأقرأ اسمي فيها بحروف كبيرة .

ـ اطمئن سأرسل لك الصحيفة في المساء حتما مع الايصال .

ـ الايصال ؟ كيف قلت اذن انك سترسلها مع ساعي البريد ؟... ومن هو الايصال هذا ؟ هل يعرف بيتي ؟

ـ الايصال عبارة عن ورقة اكتب عليها « استلمنا من الوجيه ابيسوغوم اغا ليرة ونصف ذهباً اشتراك الصحيفة السنوي » وبهذا الايصال تستطيع الحصول على صحيفتنا مجاناً طيلة عام كامل .

ـ اتكتبون اسمي في جميع الاعداد التي تصدر خلال سنة ؟

ـ لا ولكنك تصبح مشتركا في الجريدة حين تدفع ليرة ونصف ليرة ذهبية .

ـ ليرة ونصف ؟ مبلغ كبير .. الا تكفي ثلاثة ارباع الليرة ؟ لا يطلب الصحفيون زيادة من مشتركيهم .

ـ حسناً ، حسناً ، أرسل الجريدة مع الورقة وسنرى

ـ ولكن ارجو الا تعتقد انني جئت لاشراكك في صحيفتي فانا ارفع من ذلك وما جئت الا لأؤدي واجب الصداقة علي .

ـ هذا جلي .

ـ ولا تقل لنفسك ، إن هـــذا الرجل جاء ليسرق مني ليرة ونصف .

ـ ابداً ، لن افكر في هذا

ـ اقول ذلك لانني اعرف كثيراً من المحررين الجشعين يذهبون للقاء القـادمين الى استانبول ليحتالوا عليهم فيشركونهم في صحفهم ، ولكنني لا اتنازل الى ذلك ، وليست هذه عادتي .. انني اريد ان اعيش كرجل شريف .

ـ فهمت ، تريد ان تعيش عيشة رجل شريف .

ـ ولكن لا تذكر لاحد شيئاً عن مقابلتنا هذه ، فهناك كثير من الصعاليك يشوهون الحقائق ، وانا اخاف على سمعتي منهم .

ـ افهم جيداً ، انهم يشوهون سمعتك .

ـ هل انا ملوم في مناسبة هذا اللقاء مثلا ؟ انني جئت لاستقبالكم بدافع من الواجب لانشر اسمكم في صحيفتي ، فطلبتم الي أن اسجل اسمكم في قائمة المشتركين وما ذلك الا لانكم من المواطنين الاشراف ، قل ، هل امسكتك من خناقك لاجبرك على الاشتراك في صحيفتي ؟

ـ ابداً .

ـ هل هددتك بمسدس ؟

ـ ابداً ، ابداً

ـ هل اشهرت في وجهك خنجراً ؟

ـ ابداً ، ولكن اخبرني ، هل يوجد في غير هذا المكان اناس يجلبون المشتركين بتهديدهم بالمسدسات أو المدي ؟

ـ ليس هذا ما قصدت ، وانما قلت إنك لم تشترك في صحيفتي الا برغبتك وعن طيب خاطرك .

ـ صحيح .

ـ وحيال امركم لا يسعني شخصياً الا ان اطيع

ـ ما في ذلك شك .

ـ انا لست من اولئك الصحفيين الذين ما يكادون يسمعون بمجيء غريب الى استانبول حتى يتهافتون على منزله كالذباب لحمله على الاشتراك في صحفهم .

كيف يجرؤ هؤلاء الاوغاد على تشويه سمعتك ؟ ... كن عند حسن ظنك بي .

ـ شكراً جزيلاً والى اللقاء ابيسوغوم اغا ، ارجوا أن تشرفنا يوماً الى ادارة الجريدة لتشرب القهوة عندنا.

ـ لا بأس ، سأسعى للحضور يوما . ولا تنس أنت أن تكتب ما اتفقنا عليه غداً .

ـ اطمئن

حين افترق الصحفي وابيسوغوم اغا ، كانا قـــد وصلا الى شارع بيرا .

فلما انفرد ابيسوغوم اغا الى نفسه داوم سيره وهو يفكر : « لم اكن اظن انني رجل عظيم الى الحد الذي يظنه في الصحفي ، ولكنه طبعاً أدرى مني بعظمتي خصوصاً وانه صحفي مثقف . سيقرأ اسمي في الجريدة غداً بفضول ، وكل من يطلع عليه سيسعى

الناس لمواجهتي ، ويجب في هذه الحال أن البس ثياب العيد وأن اتزين بساعتي وسلستي الذهبية ، آه ليتني احضرت خدمي معي ، ولكن من يعرف ؟... سيعلم كل الناس غداً أن رجلا عظيما نزل في استانبول وهو لطيف المعشر ، رقيق القلب ، عالم باللغات ، مثقف واديب ، وستقول كل زوجة لزوجها «ليت ابيسوغوم اغا يتزوج ابنتنا» فيجيب الزوج : « وهل يقبل ابيسوغوم اغا ابنتنا زوجة له ، انه غني ويريد زوجة غنية » . ويشتد الجـــدال بين الزوج والزوجة حتى ينتهيا الى الشجار ، ولكن ماذا يهمني منهم ... ؟ كانت فكرة الجريدة فكرة رائعة ، وفائدتها انني سأخطب لنفسي فتاة غنية في يومين فقط وبذلك تنتهي قضية الزواج التي ما جئت الى هنا إلا من أجلها .. »

وهنا صدمه حمار من حمير الحجارة التي تكثر في هذا الشارع فقطع عليه حبل افكاره ، وزاد صاحب الحمار الطين بلة ان صاح يدافع عن حماره :

ـ تنح عن طريقه يا رجل .

ـ كان يجب ان تنبهني اليه قبل ان يصدمني .

اجابه ابيسوغوم اغا بذلك غاضباً ثم تابع سيره الى البيت .

ب

لم يكن الحمالون قد سمعوا من قبل باسم زقاق الزهور ، ـ فهم كغيرهم ممن يدعون معرفة مايجهلون ، وما اكثرهم في مجتمعنا مع الاسف ؛ ـ ولكنهم احتالوا على ابيسوغوم اغا مدعين معرفة زقاق الزهور جيداً .

على ان ما فعله الحمالون امر ليس بكبير ، فهناك كثيرون اخذوا على عاتقهم ادعاء معرفة ما لا يعرفون ، ونقد كل ما يرون أو يسمعون ، وقد يشتطون فيدخلون في محاضرة عن حركات النجوم في افلاكها ، أو يتخذون من اوزتين وأربع بقرات ربوها موضوعا للتحدث في المجتمعات ، وقد يولد لهم ولد فيكون سببا لاظهار كراهيتهم لاول مولود في الخليقة ، وكم ينخرطون في مناقشات يجهلون كل شيء عنها ، نعم ، الامر الكبير هو ما يفعله هؤلاء الناس اذا قيس الى عمل الحمالين ، فليس النقد أو علم الفلك أو تربية الطفل كزقاق الزهور الذي تمكن معرفته بالسؤال . وهذا ما فعلوه حقيقة ، اذ كانوا يسألون كل من يقابلونه عن هذا الزقاق حتى وجدوه ووجدوا الرقم (٢) وقرعوا الباب .

فتحت على قرع الباب امرأة طويلة الوجه لعب الدهر في وجهها تخطيطا وتجعيداً ظانا أنه يحسّنه ، تماماً كما يفعل رسام المدرسة السوريالية على لوحته ، حتى اصبح وجهها كأنه لوحة تنذر بموت أو تبشر بزواج .

دخل الحمالون الدار وبعدأن وضعوا احمالهم على الارض أخذوا ينشفون عرقهم .

ـ اظنها تخص ابيسوغوم اغا اليس كذلك ؟

فاجابها أحدهم وهو ينشف صلعته بمنديل اسود :

ـ لم يذكر لنا اسمه .

ـ أي نوع من الرجال هو ؟

ـ انه يلتف بمعطف فضفاض .

ـ وما لونه ابيض أو اسمر ؟

ـ انه اسود .

ـ اسود ؟

ـ نعم اسود ، ولكنه فاخر ، من يلتف به لا يبرد في الشتاء .

ـ ما هذا الكلام كيف يلتف به؟.. أنا لست من أولئك النسوة اللائي تعرفهن ، افهمت ؟

فاجاب الحمال وهو ينشر منديله على كرسي قريب :

ـ لم أقل قولا يزعجك الى هذا الحد ، وماذا أن التف الناس به ؟

ـ وأي كلام اكثر ازعاجا من كلامك ؟

ـ ان افكارنا لا تمتد الى الامور الغامضة .

ـ ساجعلك تفهم... هل تعرفني من قبل ؟ أنا لست من أولئك النسوة اللائي تعرفهن ، أفهمت؟

ـ ولماذا يزعجك الالتفاف ؟

ـ انني امرأة متزوجة ، فما الداعي لالتف به ؟

ـ حتى المتزوجون يلتفون به ، الزوج شيء وهذا شيء آخر ، هـذا يدفيء . انك ان خرجت مرة في الليل والطقس بارد اتلتفين بزوجك في الطريق طبعاً لا ، أما هذا فتضعينه على كتفيك .

ـ ابيسوغوم اغا ؟

ـ المعطف يا سيدتي ...وهل يوضع ابيسوغوم اغا على الكتف ؟

ـ اكنت تتكلم عن المعطف حتى الآن ؟

ـ طبعاً كان عن المعطف ، ماذا ظننت اذن ؟

ـ ظننت ، انه يجب الالتفاف بابيسوغوم اغا

فقال الحمال وهو يتناول منديله وقد نفد صبره :

ـ رحماك يا إلهي ، رحماك يارب .

بعد أن اقتنعت المرأة بكلام الحمال قالت لهم آمرة :

ـ احملوا هذه الصناديق والفراش الى الطابق الثاني .

فحمل الحمالون الصناديق اطاعةلأمرها ، وما كاد اولهم يضع قدمه على أول درجة من السلم حتى صاحت غاضبة :

ـ من أين جئتم ؟ من الجبال ؟

ـ كلا ، بل جئنا من شارع عظيم .

ـ حقاً لقد جئتم من شارع عظيم ، والدليل انكم تصعدون الدرج بهذه الاخفاف انظروا ما فعلتم بالدرج ، لقد زهقت روحي وانا انظفها هذا اليوم .

ـ ما العمل اذن ، ما عندنا احذية أخرى .

ـ ماذا تنتظرون ؟ لِمَ لا تخلعونها ؟

ـ لا تغضبي يا سيدتي ، هدئي من روعك ، سنخلعها .

وخلعوا اخفافهم ، ولكنها كانت انظف بكثير من اقدامهم .

فلما رأت المرأة اقدامهم صرخت :

ـ أتصعدون الدرج بهذه الاقدام ؟

ـ طبعاً سنصعد بها ، لاننا لا نملك غيرها .

قال الحمالون ذلك بخجل يثير الشفقة ، فكأنهم من فقرهم لا

يستطيعون الحصول على اكثر من قدمين ، وان للاغنياء أربعة أو خمسة أقدام وربما ستة أقدام يبدلونها عند الحاجة .

ـ لا أريد ، انزلوها ، ضعوها على الارض ، وسأحملها أنا .

ـ كما تشائين .

وأخذت المرأة تمسح الدرجة الاولى من السلم بخرقة ندية وهي تتمتم :

ـ آه من زوجي ، انه لا يعمل عملا ، ومع ذلك فهو يخرج في الصباح الى المقهى ويشغل اوقاته بالحديث الفارغ عن الحي والمختار ويتركني وحدي ، ادخل مثل هؤلاء الرجال الاغراب الى بيتي .

ـ هل تأمر سيدتي ان ننتظر ؟

ولم تجب المرأة على سؤال الحمالين وانما تابعت تمتمتها :

ـ لو كانت في رأسه ذرة من عقل ، لكنت اعيش الآن كالملكات ، وليس لي أولاد ولا أقارب ، ولكن ما بيدي حيلة ، ذهب عقـــله وتفكيره في الانتخاب ومشاكل الانتخاب ، وليت من يضيع وقته من أجلهم يعرفون اننا ما افتقرنا الا بسببهم . وماذا يعنيك ؟ لينجـح من يشاء وليسقط من يشاء ، أما من مصلح غيرك في هذه الامة ؟

ـ سيدتي اعطينا اجرتنا لنذهب في سبيلنا ، لماذا ننتظر بلا سبب ؟

ـ عودوا غداً .

فما سمع الحمالون قول المرأة حتى خرجوا من البيت ، اذ اعتادت اسماعهم على كلمة غداً لكثرة ما تتكرر في اذانهم كل يوم .

ـ انه مشغول في الانتخابات ـ اردفت المرأة تتمتم ـ ولا يفكر اننـا بحاجة الى الخبز واللحـم والسمن والرز لاجل العشاء ،

اننا بحاجة الى الوقود للطبخ ، انه لا يفكر أبداً في هذه الأمور ، بل يخرج مع الفجر ويعود بعد الغروب ، فاذا حضر ضيفنا بعد قليل ،وهو جائع ، لا استطيع ان أقدم له شيئاً يأكله ، إذ لا شيء في البيت .وحين يعود زوجي عند الغروب ، يعود خاوي الوفاض لا لحم ولا سمك ، ولا أي شيء يؤكل ،.. ما عندنا غير مشاكل الانتخابات ، انتخابات كل مساء ...

وفيما هي تتمتم ، فتح الباب ودخل رجل في السبعين من عمره ، فحياها مبتسماً . كان هذا زوج المرأة ، ذو جبهة بارزة ووجه عجيب يخيل لمن يراه أن أحداً يدغدغه .

وما كاد يدخل الرجل البيت حتى ابتدرته بقولها :

ـ اين كنت حتى الآن ؟ يا الهي .

ـ لا تذكريني يا امرأة . لم تنته أعمال الانتخاب بعد .وقد حدد يوم الاحد موعداً لها ، ولن ننتخب الا هيئة صالحة . لقد تعلق بي طوروس اغا بعد ان سقاني بضعة أقداح من العرق وأخذ يرجوني أن اعطي صوتي لمن يريد هو ، ولكني لا أرى فيمن يزكيهم الكفاءة اللازمة ، مع أن من أريدهم ، هم اناس فاضلون يقدمون لي كل يوم أقداح العرق بلا حساب ، ولا يسرقون حقوق الحي وأهله كغيرهم .

ـ ليس هذا وقت الحديث عن الانتخابات . اذهب الآن واشتر لنا قطعة من اللحم .

ـ ولقد تأثر طوروس اغا كثيراً وأقسم الا يلعب معي الشدة بعد الآن ، ومن ذا يريد أن يلاعبه ؟...

ـ الم تسمع ما قلت ؟... هيا اذهب بسرعة .

ـ سألعب مع ماردیروس افندي بالضاما بعد الآن ...

ـ مانوك اغا دع هـذا الحديث الآن وأذهب الي القصاب واشتر لنـا قطعة لحم .

ـ هل سمعتِ بما جرى لماردیروس افندي ؟لقد وضعت زوجته في الليل وكادت تموت ...

ـ ولماذا ؟

ـ كانت ولادتها متعسرة ، فاحضروا لها أربع قابلات وستة عشر طبيباً وكانت النتيجة أن وضعت صبياً بصعوبة .

ـ يا للمرأة المسكينة ...

ـ اذهبي لزيارتها غداً .

ـ سأذهب ، أما الآن فاذهب انت ، وانه قضية اللحم .

ـ وهل اللحم ضروري الليلة ؟

ـ طبعاً، لقد وصلت صناديق ابيسوغوم اغا وفراشه وسيحضر هـــو بعد قليل .

ـ احقاً ما تقولين ؟

ـ وأي داع للكذب ؟

ـ حسناً ، ها أنا ذاهب لاشتري لحماً طيباً .

ولم يكد يخرج مانوك اغا من البيت حتى نادته زوجته :

ـ مانوك اغا ، مانوك اغا .

فالتفت مانوك على النداء ليسمع زوجته تسأله :

ـ كيف تريد أن اطبخ اللحم .

ـ ان شئت مع البطاطا وان شئت مع اللوبياء .

ـ ليس هذا ما اعني ، انمـا أقول انه ليس عندي وقود ويلزمنا

قايل من الرز .

فاجابها وهو يسير :

ـ حسنا ، حسنا

ـ مانوك اغا،مانوك اغا

نادته ثانية ولما التفت قالت :

ـ لا تنس الرز والخبز .

ـ ليكن ما تريدين سأحضر معي الرز والخبز .

ومشى مانوك اغا يسرع خطاه قبل أن تناديه ، الا أنها نادته قبل ان ينعطف باعلى صوتها .

ـ مانوك آغا ، مانوك آغا .. مانـ ...

فوقف الزوج وقد بدت على وجهه علامات التذمر وعاد الى زوجته قائلا :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ انك تسرع كالقطار يا رجل ، لقد بح صوتي وأنا أصيح، لا يوجد عندنا بصل ولا ملح ولا زيت أو غيره لانارة المصباح ، هل تريد ان نستقبل الرجل في الظلام ؟

ـ قولي ما يلزمك دفعة واحدة لاحضرها لك من عند البقال ولا تناديني مائة مرة .

ـ لا يوجد عندنا ابريق للمـاء ولا منديل لرأسي وما عندي حذاء البسه هل تريدني أن اخرج بهذه الهيئة أمام ابيسوغوم اغا ؟

ـ لنشتر اليوم الغذاء وغداً نفكر في الكساء .

ثم أقفل الباب خلفه بشدة وانصرف .

ـ مانوك اغا، مانوك اغا ...

ـ اصرخي قدر ما فيك من قوة فانا لن اعود ، كان يتمتم بهذه الكلمات وهو يتابع سيره .

بعد أن اجتاز ابيسوغوم اغا عدة شوارع سمع من ورائه صوتا نسائيا يناديه . فقال في نفسه دون أن يكلف نفسه مشقة الالتفات لمعرفة من تناديه :

ـ ان لم يكن لديك عمل يشغلك ، فاركضي خلفي وانت تنادين .

وتكرر النداء ، وكان نداء ابنة ماردیروس افندي وهي فتاة في العاشرة من عمرها :

ـ مانوك اغا ، مانوك اغا .

ولم يتوقف مانوك اغا بل تابع سيره وابنة ماردیروس افندي تسرع وراءه لاهثة حتى اذا اصبحت على بعد عشر خطوات منه نادته متقطعة الانفاس:

مانوك اغا ،

ولكن مانوك اغا ، اصر على المضي في سيره ، مما اضطر البنت الى الالحاق به وجذبه من يده ... اتركيني يا امرأة ، قال ابيسوغوم اغا دون ان يلتفت الى الوراء .

اتركني يا امرأة . ، قال ابيسوغوم اغا دون ان يلتفت الى الوراء .

قال ابيسوغوم اغا دون ان يلتفت الى الوراء .

ـ أريد أن أقول لك شيئاً .

ومع ذلك لم ينظر اليها مانوك اغا بل داوم سيره وهو يقول !

ـ لم يعد بامكان ذهني استيعاب طلباتك ، أنت امرأة ثرثارة...

عندئذ جذبته البنت بكل قوتها وقالت :

ـ مانوك اغا . مانوك اغا ، هذه أنا .

فلما التفت ورآها سألها :

ـ أنت هنا ، ما الذي جاء بك ؟

ـ نـ... ـ... م انا

ـ كيف حال والدتك ؟

ولم تستطع البنت أن تجيب على سؤاله لانقطاع انفاسها

ـ قولي كيف حال والدتك ، هل جرى لها مكروه ؟

فاجابته اغاوني لاهثة ؟

ـ امـ ...ي بخ... ير ، ولكن ... الو... ليد ...

لا ... يرضع ... ونز... يد ... قا.. بلة .

ـ حسنا، حسنا ، هيا اذهبي أنت الى البيت وسأرسل أنا القابلة.

ولما تركته اغاوني ، غيّر طريقه متجها نحو بيت القابلة .

لنترك مانوك اغا يقف كلما صادف صديقا في الطريق ليتحدث معه عن الانتخابات أو عن زوجة ماردیروس افندي ، أو حضور ابيسوغوم اغا وغير ذلك ، ولنرجع بحديثنا الى ابيسوغوم اغا .

ج

اعتاد النـاس في السنين الاخيرة أن يذهبوا الى فرنسا أو الى المانيـــا لاستكمال دراستهم وحين يعودون كانوا يتوجهون الى استانبول بقصد الزواج ،ولم يكن من العسير معرفة سبب وجود ابيسوغوم اغا في استانبول وأن غايته الوحيدة هـــي الزواج . ومسألة الزواج هذه كانت تشغله حتى انه ، لم ير الحمير المقبلة عليه فصدمه احدها ، وربما كان الحمار الذي صدمه يفكر في الزواج أيضاً ، فلم ير رجلا ضخمـا أمامه كأبيسوغوم اغا . على أن من درسوا التاريخ

القـــديم يعرفون السبب الحقيقي لصدمة الحمار ، وهو أن احد اجداد هذا الحمار شاهد مرة أحد الملائكة ، ومنذ ذلك الحين لم تعد الحمير تفكر الا في انها فوق كل المخلوقات ، وأن على الناس أن يحترموها فيفسحوا لها الطريق حين تسير ، وفوق هـذا فانها تمثل الملك ميداس باذانها الطويلة.

لم يكد ابيسوغوم اغا يتخلص من الحمير حتى أخذ يسأل هذا وذاك عن زقاق الزهور لانه يحضر للمرة الاولى الى استانبول ، وقد نصحه أحد أصحابه أن ينزل في البيت المذكور من هذا الشارع ، فيأكل بهناء وينام براحة . وقبل اسبوع كتب هذا الصاحب الى مانوك اغا يعلمه بحضور ابيسوغوم اغا ، أما ابيسوغوم اغا فكان حسب التعليمات التي يتلقاها يدخل خطأ في شارع ويخرج من آخر دون أن يصل الى غايته وكثيراً ما كان يدخل ازقة لا منفذ لهـا فيتميز غضبا ، ويعود من حيث اتى ، وهو يفكر فيما عسى أن يكون الحمالون قد فعلوا بصناديقه وفراشه ، نظراً لما سمعه عن امانة هؤلاء القوم.

نجح ابيسوغوم اغا بعد ساعة من الزمن ذرع اثناءها جميع ازقة شارع بيرا جيئة وذهابا ، في الوصول الى زقاق الزهور ، الذي اطلق عليه هذا الاسم لان الزهور فيما مضى كانت تتـــدلي من جميع نوافذه ، ولكنه لم يستحق هـذا الاسم في عام الف وثمانمائة وسبعين ونيف .

وبينما هو يبحث عن المنزل رأى امرأة تقف على الباب وكانت زوجة مانوك اغا وهي تنتظر زوجها فسألها :

ـ اين يقع المنزل رقم٢ ؟

فاجابته المرأة :

ـ هنا ، تفضل بالدخول ابيسوغوم اغا .

ـ هل احضروا صناديقي وفراشي ؟

ـ نعم احضروها ، ابيسوغوم اغا ، أنها في الطابق العلوي يا ابيسوغوم آغا ـ قالت ذلك ثم اشارت الى حشية ممدودة على أرض غرفة صغيرة كأنها كوخ ـ اذا شئت أن ترتاح قليلا ، فاسترح في هذه الغرفة .

ـ فعلاً انني تعبان كثيراً وسأرتاح هنا كما أشرت .

ـ لك ما تشاء ابيسوغوم آغا ، البيت بيتك ابيسوغوم اغا ، خذ راحتك كأنك في بيتك .

ـ متشكر .

ثم دخل الى الغرفة الصغيرة التي وضعت المرأة فيها مصباحاً كاد أن ينفد زيته .

ـ كيف حالك ابيسوغوم اغا ؟ وكيف حال اهلك ؟ ارجو أن يكونوا بخير .

ـ انهم بخير .

ـ زادكم الله خيراً . كيف حال الاولاد ابيسوغوم اغا ؟ الا يذهبون الى المدرسة ؟

ـ ليس لي اولاد .

ـ كيف هي زوجتك ، هل هي بخير ابيسوغوم اغا ؟

ـ لم اتزوج بعد .

ـ الست متزوجاً اذن ابيسوغوم اغا ؟

ـ كلا .

ـ خيراً ان شاء الله ، سنجد لك هنا زوجة جميلة ونجعلك

استانبوليا ابيسوغوم اغا .

فاجاب:

ـ هذا ما جئت من اجله ، ولكن قبل الزوجة أريد طعاماً لانني لم آكل شيئاً منذ الصباح .

ـ تحت امرك ابيسوغوم اغا ، ها أنا ذاهبة لاحضر لك طعامك .

وخرجت المرأة ثم فتحت باب الدار ووقفت امامه تنتظر مانوك اغا ، الذي يذكر القراء ، انه ذهب للبحث عن قابلة .

حين انفرد ابيسوغوم اغا الى نفسه في الغرفة ، وجد على الارض كتابا ، أخذه وبدأ يقلب صفحاته ، ولكنه لم يتمكن من قراءته بسبب الجوع ، لانه في هذه الحال لا يستطيع أن يقرأ ولا أن يكتب كتابا ، لذلك اعاده الى مكانه وأخذ يطوف في انحاء الغرفة .

ودخلت المرأة في هذه اللحظة وهي تقول :

ـ ارجو ابيسوغوم اغا الا تزعج نفسك وأن ترتاح كأنك في بيتك .

ـ ما من سبب يزعجني غير الجوع ، وأريد أن آكل فقط .

ـ اني اجهز لك طعامك ، وسأحضره لك حالاً ـ قالت ذلك ثم خرجت على الفور لتنتظر زوجها أمام الباب .

وبعد أن خرجت المرأة قال ابيسوغوم اغا لنفسه : ما هذه المرأة ، كيف أموت من الجوع ثم تدعوني الى الارتياح ، وهل يمكن للجائع ان يرتاح ؟

وعادت المرأة التي تبلغ الستين من عمرها الى الغرفة وقالت :

ـ اعتبرني اختك أو ابنتك ، واذا احتجت الى شيء فلا تخجل من أن تطلبه لاحضره لك حالاً .

- متشكر.

- من عادتي أن أؤمن الراحة للضيوف الذين ينزلون في بيتي .

- افهم جيداً ، ولا أريد الآن شيئاً سوى الاكل .

- طعامك جاهز ، لاتفكر ...

وقطع على المرأة كلامهاقرع الباب ، فظنت القادم زوجها الاانها حين فتحت سمعت القادم يقول :

- عليك سلام الله يا سيدتي .

لسنافي حاجةلنقول إن القادم كان من رجال الدين ، لانهم وحدهم يستعملون هذه الكلمة ، كلمة سلام الله . التي اجابت عليها المرأة تقول:

- ببركتك يا محترم .

- كيف حالك يا سيدتي هل انت بخير ؟

- حمدالله يا محترم .

- قابلت مانوك اغا قبل قليل واخبرني ان عندكم ضيفاً فجئت لزيارته .

- حسنا فعلتم ، تفضلوا بالدخول يا محترم . ثم اشارت الى الغرفة التي كان فيها ابيسوغوم اغا يفكر في جوعه ،

ودخل الكاهن الغرفة

ووقف ابيسوغوم اغا احتراماً له .

- سلام الله ابيسوغوم اغا

- ببركتك يا محترم .

- حين علمت بتشريفك انا الخاطيء ، أسرعت للتشرف بمقابلتك والسؤال عن صحتك الغالية ، كيف حال ابيسوغوم اغا ؟

- بخير

ـ ادام الله الخير وأمد في عمرك واحسن اليك

ـ شكراً ، وأنت كيف حالك يا أبت ؟

ـ لا تسأل عن حالنا ... فهو حسب الوقت ... ـ حماكم الله من كل مكروه ـ كلما كان الناس بخير ، اشرقت وجوه الكهنة .

فاجاب ابيسوغوم اغا وعيناه لا تفارقان الباب الذي ينتظر ان يدخل منه الطعام :

ـ هو كذلك يا محترم .

ـ الناس في ازمة خانقة ، فالوقت سيء ، لذلك ترى الناس يتبرمون يوما بعد يوم .

ـ صحيح .

ـ ولكن ما بيدنا إلا الصبر ... وبذلك يقول الكتاب المقدس : اصبر على امر الله .

ـ هو كذلك .

ـ ان لم نصبر ، فقد تعجلنا ، ويقول النبي ، تعجلوا ولكن لا تخطئوا

ـ صحيح .

قال ابيسوغوم ذلك وهو لا يفقه شيئاً من قول الكاهن بل أنه يضيق بوجوده ، فكما يعرف القراء انه لا يحتاج لغير الاكل في هذه الساعة .

ـ ليس بالخبز يعيش الانسان فقط ، بل بعبادة الرب أيضاً .

وأخرج الكاهن علبة العطوس من جيبه ، وبعد أن أخذ قليلا منه بين اصبعيه ودسه في منخريه قدم العلبة الى ابيسوغوم اغا قائلا :

ـ تفضل يا سيد

فاخذ ابيسوغوم اغا قليلا من العطوس واستنشقه .

ـ هذا قليل ابيسوغوم اغا ، ارجوك استنشق مرة أخرى ، فان العطوس لا يضر .

فاخذ ابيسوغوم اغا ذرة أخرى حسما للجدال ، لعل الضيف ينهـــي زيارته ويذهب .

الا أن الكاهن لم يكتف بل قال ملحا :

ـ انك لا تستنشق منه جيداً ابيسوغوم اغا ، خذ ذرة كبيرة.

ـ شكراً يا محترم لم اعتد عليه .

ـ ارجو الا ترفض رجاء الخاطىء ، خذ منه ذرة أخرى .

فاستنشق ابيسوغوم اغا ذرة ثالثة وهو يقول في سره : الا تريد ان تفارقني .

ـ يقول النبي داود : ما دام الانسان يخطيء ، فهذه تخفف سيئاته ...

ـ ايقول ذلك عن العطوس ؟

ـ لا ، انه يقول لنا... وعلينا ان نعمل في هذه الحياة القصيرة على الاحسان الى الغـــير ، والبر بالفقراء وامثالهم ، ونصلي على أرواحنا وامواتنا .

ـ هو كذلك .

ـ ونكون مستعدين لنداء ربنا .

ـ صحيح .

ـ انا الخاطىء سأتجاسر على عرض طلب عليك أرجو الا ترفضه، إذ أعرف انا الخاطىء مدى عطفك وكرمك .

ـ تفضل .

ـ ليفتح الله خزائنه لامثالك من المحسنين

ـ شكراً .

ـ وعوضك عن الواحد الفاً ، وعن الالف مليونا ، لتصرف في بناء الكنيسة واعلاء الامة ، أما طلبي فهو ، اني أريد أن اقيم قداساً على أرواح امواتك يوم الاحد القادم . فاغفر لي جرأتي ، لأني لا استنكف عن واجبي الذي يحتم علي أن اذكر الناس دوما الا ينسوا اموالهم .

ـ الحق بيدك يا محترم.

ـ فأمر اذا شئت أن احضر بعض الترتيبات لهذه الغاية ، ولا تكلفك هذة كثيراً بل تكفي ليرتان ذهبيتان . وبهذه المناسبة اقدمك الى الجمهور في الكنيسة ، واعلمهم ان القداس والتلقيم يخصك أنت .

ـ اشكرك على كرمك

ـ لا شكر على واجب

فاخرج ابيسوغوم اغاليرتين من كيسه ودفعهما الى الكاهن قائلا :

ـ تفضلوا ها هما الليرتان .

فاجاب الكاهن وهو يفتح كفه لاخذهما :

ـ وما الداعي للعجلة ؟ دعهما ليوم آخر ..

ـ لا ، خذها الآن

ـ ما دمت تصر ، فسآخذها جبراً لخاطرك ، حفظك الله ، وعمر بيتك ،وملأ كيسك : وقضى حاجتك ، ويسر اعمالك ، وحماك من المصائب والاهوال .

ولما اتم الكاهن دعاءه استأذن وانصرف

فاخرج ايسوغوم آغا ليرتين من كيسه ودفعها الى الكاهن .

فقال ابيسوغوم اغا يخاطب نفسه :

ـ تخلصنا أخيراً من يده ، ما هذه المشاكل ؟ منـــذ وطئت قدمي أرض استانبول اليوم وهي تنصب على رأسي ، لم اكد اغادر الباخرة حتى علق بي الصحفي وضايقني مدة ساعتين ، ولما فارقته تعرضت لشتى المضايقات قبل العثور على البيت . ولما وصلت الى البيت أملت ان آكل واستريح ، ولكن ربة البيت تركتني جائعاً ، وما برحت تدخـــل علي لترجوني في كل مرة الا افكر إلا في راحتي . ولم يكفني ما انا فيه حتى جاءني هذا الرجل ، ليحشو انفي بالعطوس ، ثم ليأخذ مني ليرتين بأمر من النبي داود ، وليذهب مصحوبا بالسلامة. كل هذه المضايقات تحملتها وأنا جائع . ولماذا لا يحضرون طعامي ؟ هل انام جائعاً ؟. . . ما هذه الاستهانة ؟...

وفيما هو سابح في افكاره هذه واسئلته التي بقيت بلا جواب ، انطفأ المصباح بعد أن نفد زيته ، وبقي الضيف وحيداً في الظلام .

وأردف الرجل الضخم يخاطب نفسه :

ـ هذا لا يحتمل ، فاما أن اترك هذا البيت الى غـــيره ، واما أن انادي المرأة فاوبخها . عندي في بلدتي خادمان ، يقومان على خدمتي ، ويهيئان طعامي في موعده ، وينفذان جميع أوامري . فكيف يتحمل من اعتاد على أن يخدمه خادمان مثل هذا الاستخفاف الان .

وفي هذه اللحظة فتحت المرأة الباب فلما رأت الظلام قالت :

ـ ما هذا ؟ هل انطفأ المصباح ؟

فاجابها ابيسوغوم اغا وهو يكظم غيظه :

ـ نعم ، انطفأ .

ـ لا تتعب نفسك في هـــذه الامور ، فهي من واجبنا

ابيسوغوم اغا .

ـ نعم ولكني جائع ولم تبق بي طاقة الاحتمال .

ـ قلت لك لا تتعب نفسك ، اترك كل شيء لي ، فانا المهتمة بشئونك هنا .

وذهبت المرأة الى جيرانها واقترضت منهم زيتاً أنارت به مصباح كوخ ابيسوغوم اغا .

د

لم يمض نصف ساعة على اشعال النور حتى دخل شاب ووقف أمام ابيسوغوم اغا ، انه لا يشبه التجار ولا السقاة ، كما لا يشبه الصناع ولا العمال ، وبالاختصار ، انه يشبه شيئاً لا شبيه له . في الثانية والثلاثين من عمره تقريباً ، ازرق العينين ، اشقر الشعر مسرحه ، ذو لحية بطول اصبعين هي في العاصمة علامة حزن ، أو عوز وفاقة . أما ثيابه فكانت من القدم ، بحيث يدفع هواة التحف فيها مبلغاً كبيراً ، وكانت تبعث في النفس الاشمئزاز ، على عكس طلعته الجذابة المليحة .

دخل هذا الشاب الى الغرفة واقترب من ابيسوغوم اغا صائحاً :

ـ سيدي المحترم ، انا خادمكم المطيع .

فسأله ابيسوغوم اغا مذعوراً :

ـ ماذا دهاك ؟ ماذا تريد ؟

ـ سيدي العظيم ، علمت بقدومكم فجئت لأضع تحت اقدامكم تأكيدي باجلالكم واحترامكم .

ـ تحت اقدامي ؟ حسناً فعلت ، ضعها . ـ قال ابيسوغوم اغا

ذلك وهو يظن انه احضر له خفاً أو حذاء .

ـ شكراً لسيدي العظيم .

ثم رفع رأسه واعتلى منضدة وقف فوقها .

فاستولى الذهول على ابيسوغوم اغا من هذا المنظر ، وأخذ ينظر الى الشاب نافد الصبر ، منتظراً نتيجة عمله فوق المنضدة .

أما الشاب فقد أخرج من جيبه ورقة وصاح بأعلى صوته وقد صوب نظراته الى ابيسوغوم اغا :

ـ سيداتي ، سادتي ...

فتملك ابيسوغوم اغا الذعر ، وقفز من مكانه وقد فقد السيطرة على اعصابه وصاح غاضباً :

ـ من هو هذا الرجل ؟ هل هو هارب من مستشفى المجانين ، أم أنه على وشك دخوله ؟

وتابع الشاب محاضرته بعد أن خفض قليلا من صوته :

ـ الامة الارمنية ، تقوم بدور اليوم ، يجب أن يهدى الى من ، كافحوا من اجلها ...

ـ ماذا تريد يا اخي ؟

ـ فيما مضى من الازمان ، كان الظلام يحارب النور ، والجهل يحارب العلم ، والماضي ضد المستقبل ، والاستعباد ضد الحرية ، والسيف ضد القلم ، والحقد ضد الحب ، والنار ضد الماء ، ويحارب اللحم ، الخضار ؛ اما اليوم فقد مضت تلك الازمان . كانت هي الماضي وكنا نحن المستقبل ، هي الظلام ونحن النور ، هي الجهل ونحن العلم كانت السيف وكنا القلم ، كانت البغضاء وكنا المحبة ، هي النار ونحن الماء ، هي اللحم ونحن الخضار ، هي النوى ونحن الثمر ، هي

ماذا تريد يا اخى ؟ أنا لم أسىء إليك فماذا تريد منى ؟

الاشواك ونحن الورود ، ذهبت تلك العصور ، التي كان يتأرجح فيها الانسان في ارجوحة الجهل مرة هنا وأخرى هناك . .

ـ ماذا تريد يا اخي ؟ انا لم اسيء اليك فماذا تريد مني ؟ اذهب وقل ذلك لمن اساء اليك . .

ـ نعم ، كانت الانسانية تتعذب وتتألم في ايدي ظالمة ، وليس لها من تشتكي اليه ...

فقال ابيسوغوم اغا يخاطب نفسه :

ـ رحماك يا رب ، رحماك يا رب .. يظهران علي أن احتمل هذه المصائب كنت استطيع أن انزله من فوق المنضدة ، ولكني اخشى أن يخرج من جيبه مسدسا ويطلق النار علي ، اذ ان غضبه شديد .

ـ ولما جاء العلم ـ تابع الكاتب ـ وتغلب على الجهل كما تغلب النور على الظلام ، والحب على الحقد ، والقلم على السيف ، والمستقبل على الماضي ، ذلك الوقت آه ذلك الوقت ... نعم ، ذلك الوقت نعم ، أقول ، في ذلك الوقت فقط ، ان الانسانية والشعب والوطن كلمات لم توجد لتملأ القواميس ، بل وجدت لتملأ عقول الناس ، وقلوبهم ، كلمات في اعماق الروح لا تمحى مدى الاجيال . .

ـ اخي ، ارجوك انزل واشك لي الامك على الارض ...

كان الكاتب يرتجف في مكانه حتى خشي ابيسوغوم اغا ان يوقع المصباح على الارض ولما نفد احتماله صرخ في وجه من يدعي انه كاتب :

ـ انزل على الارض .

ـ ارجوك لا تقاطعني .

ـ اتنزل أم لا ...

ـ لا تجرح قلبي الذي يخفق في حب الوطن .

ـ ان كان لديك ما تقوله تعال الى جانبي واجلس كأي انسان وتكلم ، وماذا يفيدك الصعود فوق المنضدة ؟

ـ ارجوك اسمح لي أن اكمل ، آه ، أنت لا تعرف مقدار المي حين القي خطاباً ...

ـ انزل

فينزل الكاتب على الارض ويأخذ كرسياً يجلس عليه .

ـ والآن ماذا تريد قل واسرع .

ـ اقبل قدميك، لا تعاملني بقساوة ، فقلبي مجروح واكاد ابكي .

وبدأ يبكي فعلا .

ـ لماذا تبكي يا اخي ؟

ـ أنا أريد أن اخدم امتي بالادب ، الا ان شعبنا يعامل ادباءه باقسى معاملة .

ـ وما ذنبي انا في هذا ؟

ـ لا ذنب لك، بل ان الحق معك ... فعندي قصائد عن الوطن، بديعة جداً ، انها اسطر من المجد تطفح بالخيال الرفيع ، والتي تسبح فيها الحماسة بلهيب مستعر في العلياء .

ـ حسنا ، وهل هذا يسبب البكاء ؟

ـ شعبنا لا يعترف بحرمتها وشرفها ، انه يظنها لعبة اطفال فيهملها حتى يموت صاحبها جوعا .

ـ وماذا تريدني أن اعمل ؟

ـ كل ما ارجوه هو ان تعاملني بالاحسان أولا

ـ وأي اساءة لمستها مني ؟

ـ اريد أن اطلب منك منة هي ...

ـ ماذا ، قل واسرع .

ـ لا تصرخ في وجهي هكذا رعاك الله. والا فسأعود الى البكاء ...

وبدأ الكاتب يبكي من جديد .

فقال ابيسوغوم اغا لنفسه :

ـ الهي امنحني الصبر .

لا تصرخ في وجهي هكذا، وإلا فسأعود الى البكاء

ـ طلبي هو ، انني اريد ان اطبع الخطاب الذي كنت اقرأه قبل قليل ...

ـ اذهب واطبعه هل منعك أحد ؟

ـ اريد أن اطلب من مقامكم العالي ان تدفعوا أنتم مصاريف الطبع .

ـ لماذا ؟... وأي سبب يجعلني ادفع مصاريف طبع محاضرتك ، هذا أمر لم اسمعه في حياتي ، ان يطبع رجل كتاباً لمنفعته ويدفع ابيسوغوم اغا المصاريف ..

ـ ارجوك ، ان قلبي مجروح لا تفتح فيه انت جرحا آخر .

ـ ليس ما يدعوني الى جرح قلبك ، اذهب عني ، فلقد جئتني وبالاعلى .

ـ أتعرف كم يثقل على الاديب سماع مثل هذه الكلمات ؟

ـ لا أعرف ولا أريد أن أعرف

ـ قلب الشاعر رقيق جداً ويجرح من أبسط الكلمات . ولقد كتبت قصيدة في هذا الموضوع اصغ الي لأقرأها .

ـ ما عندي وقت لسماع الاشعار .

ـ ارجوك لا تعامل اشعاري بقسوة فلقد صرفت في نظمها جهداً استغرق شهرين، فكيف لا يجرح شعوري اذا لمست منك استخفافا بامرها ؟ فأكرر رجائي لا تسيء في حديثك الى اشعاري ... واسمح لي ان أقرأها لك .

ـ لم احضر الي هنا لسماع الاشعار .

ـ لا بأس كتبت قصيدة في الرثاء فلنلق نظرة عليها .

ـ لا أريد ، أنا الآن جائع ، وسأتناول طعامي .

ـ اذن انظم لك وصفاً للأكل

ـ ما عندي وقت للاستماع .

ـ ارجوك لا تكرر هذا الكلام مرة أخرى ، فما من كلمة اقسى على المؤلف منها ، اذا رغب في قراءة ما انتجه لاصدقائه . ارجوك يا سيدي ، عامل المؤلفين برقة .

ـ اتريد ان احملك على رأسي ؟

ـ اقبل رجلك ، لا تسخر مني ، ولماذا تحملني على رأسك .

ـ ماذا تريد اذن ! هل اعطيك كيس نقودي لأكون قد عاملت المؤلفين برقة ؟

ـ لا مصاريف طبع محاضرتي فقط .

ـ وبكم تنتهي هذه المشكلة .

ـ تنتهي باربع ليرات وهو مبلغ زهيد ، وتكون قد شجعتني ، وسأنشر اسمك في صدر الكتاب الذي اطبعه .

ـ ستكتبه في صدر الكتاب ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا ؟

ـ ليعرف الناس أن هذا الكتاب قد طبع على نفقتك .

فاخرج ابيسوغوم اغا من كيسه اربع ليرات دفعها للكاتب الذي خرج حال استلامه الليرات الاربعة وهو يتمتم بكلمات الشكر .

الا أن ابيسوغوم اغا ناداه وسأله :

ـ الا يمكن ان تكتب اسماء خدمي أيضاً في صدر الكتاب ليعرف الناس ان ابيسوغوم اغا يملك بقراً وغنماً وحميراً في بلده ؟

ـ يمكن كتابة ما تقوله في حقل الريف .

ـ لست افهم شيئاً .

ـ اعني انك اذا رغبت فانا اكتب لك قصيدة خاصة بك .

ـ وماذا أفعل بالقصيدة ؟

ـ تطبعها في احدى الصحف .

ـ وهل يطبعونها ؟

ـ لِمَ لا ؟

ـ عال ، اكتب القصيدة اذن .

ـ على رأسي .

ـ ولتكن قصيدة جيدة .

ـ كما تأمر .

ـ بشكل يعجب كل من يقرأها .

ـ طبعاً

ـ هل تحضرها غداً .

ـ غداً ؟ .. ماذا تقول ؟... يلزمها شهر على الاقل

غداً ؟ ماذا تقول ؟ يلزمها شهر على الاقل

ـ شهر ؟

ـ تقريباً ، لأن قراءة القصيدة سهلة، أما كتابتها فصعبة جداً ، ولنظم قصيدة جيدة احتاج الى شهرين على الاقل .

ـ ماذا تقول ؟...

ـ نعم ولكني سأسعى لكتابتها في شهر واحد .

ـ وماهي الصعوبة في كتابة القصيدة ؟

ـ ماذا تظن ؟ علي أن انتظر شهرين ريثما ينزل الوحي ويوحي الي بما اكتب ، وبدون هذا الوحي لا تمكن كتابة اية قصيدة .

ـ وماذا ان لم يحضر الوحي ؟...

ـ لا بد من أن يحضر .

ـ اكتب اليه ليسرع بالمجيء فلا ننتظر شهرين .

ـ انه يحضر بدون رسالة يا سيدي .

ـ واين يقيم ...؟ هل هو بعيد !

ـ بعيد جداً ، ولكنه سيحضر .

ـ من السماء أم من البحر ؟

ـ لا يا سيدي الكريم ، لا

ـ من هو اذن ؟ أهوفي باطن الارض ؟ ومن أين سيأتي ؟... لنشق له طريقا اينما كان ... الا يحضر هذا الاسبوع اذا دفعنا له ليرة أو ليرتين ؟

ـ طبعاً اذادفعت له ليرتين يهون الامر ، ويحضر هذا الاسبوع راكضاً .

قال الشاعر هذا طمعاً في الذهب الذي سمع به .

ـ اكتب اذن وبلغه سلاماً خاصاً مني وقل له ، إن ابيسوغوم اغا يريد مقابلتك .

ـ على رأسي والى اللقاء يا سيدي ، ولكم الشكر الجزيل ، انا خادم مقامكم وارجوكم قبول ...

ـ لا ، لقد كثرت طلباتك ، لقد لبيتها جميعاً ، فماذا تريدني ان اقبل بعد ؟..

ـ احترامي الجزيل يا سيدي... الذي سأكون به خادم كرمكم الامين .

ـ حسناً جداً .

وذهب الشاعر بعد أن وعد باحضار الوحي مقابل ليرتين ، ذلك الوحي الذي يمكن احضاره باقل من ذلك بكثير ، اذ ليست اجرة الوحي باغلى من اجرة الشيطان .

أما ابيسوغوم اغا فكان كما يلاحظ القراء ينسى جوعه في كل مرة يسمع أن اسمه سيذكر في الصحف أو في الكنيسة ، وفي كل هذه المرات كان يفتح كيسه ليدفع أجور هذه الدعايات ، التي يعدونه بها . وما حب الحياة الا نوع من انواع الجوع ، التي يشبع بها امثاله جوعهم . ولقد اختلف الناس في الرغبة في نشر الاسم في الصحف فالبعض يعتبرها رذيلة والآخر يعتبرها فضيلة ، وكان ابيسوغوم اغا من الفئة الأخرى ، وبدلاً من أن ينشغل بجوعه بعد ذهاب الشاعر أخذ يفكر في القصيدة وفي الوحي وقال مخاطبا نفسه ؟

ـ هل ستكون القصيدة كما اريدها يا ترى ؟ وبعد كم يوم يحضر هذا الوحي ؟ وان لم يحضر ، الا يمكن احضار غيره ؟...

وقطعت عليه ربة البيت سلسلة افكاره حين دخلت قائلة :

ـ طعامك جاهز ، تفضل ابيسوغوم اغا .

وكانت الساعة القمرية تشير في ذلك الحين الى الرابعة مساء .

ه

كانت تقابل ذلك الكوخ الذي لاقى فيه ابيسوغوم اغا مافقده صوابه ، غرفة مخصصة للطعام تجاور المطبخ . فدخل ابيسوغوم اغا اليها حسب اشارة ربة البيت ووجد أخيراً المائدة معدة .

ورمى بالتحية الى مانوك اغا الذي كان منهمكا في صف الكراسي حول المائدة . فقال مانوك اغا يشير الي صدر المائدة :

ـ تفضل هنا ابيسوغوم اغا

فاجاب الضيف وهو يجلس في المكان المشار اليه :

ـ تفضل أنت أيضاً .

فسأله مانوك اغا وهو يغير صوته بصورة تمثيلية :

ـ معذرة لتأخر الطعام اليوم ، ولكنا سنعده لك بعد الآن في الوقت الذي تحدده . لقد اضطررنا اليوم لاسباب عديدة الى تأخير العشاء ، وسأذكر لك هذه الاسباب فيما بعد . والآن كيف حالك ابيسوغوم اغا ؟ انشاءالله بخير ؟

ـ باحسن حال

ـ الحمدلله ، كيف حال صديقنا في طرابزون ؟

ـ انه بخير ويبلغك تحيته الخالصه

ـ ليسلم المسلم وحامل السلام ، ما قولك في قدح من العرق ، انه يفتح الشهية

ـ سأشرب قدحاً واحداً فقط

ـ كما تريد ، تفضل

وقدم مانوك اغا القدح الى ابيسوغوم اغا الذي جرعه جرعة واحدة .

ـ هنيئاً ابيسوغوم اغا

ـ شكراً

ـ نخب صحتك

ـ وصحتك

وشرب مانوك اغا عرقه بعد أن مزجه بالماء على اربع دفعات.

ـ الى ان يحضر الطعام يمكننا تضييع الوقت بالحديث ، اليس

كذلك ابيسوغوم اغا .

فاجاب الضيف بلهجة تنم على انه يفضل الطعام اولاً :

ـ نعم .

ـ اسمع ، سأقص عليك ما جرى لنا اليوم : منذ عدة اسابيع ونحن مشغولون بانتخاب الهيئة الاختيارية للحي ، قد تقول في سرك الآن : ايها الرجل مالك وما للهيئة الاختيارية ، اليس كذلك ابيسوغوم اغا ؟ على اننا اذا لم نهتم أنا أو أنت بامور الامة فمن يهتم بها اذن ؟ وكلمة ماذا يهمني ، كلمة سيئة جداً ، لانها كلمة يتملص بها كل انسان من المسؤولية ، وتبقى واجبات الامة بلا نصير ، وفي شرعي أن على كل فرد ان يهتم بواجبات امته قدر طاقته ، اتشرب قدحا آخر ابيسوغوم اغا ؟ انه يفتح الشهية .

ـ لم اعتد على شرب اكثر من قدح واحد .

ـ اقداحنا صغيرة وجو استانبول يساعد على الشرب

ـ لا بأس بقدح آخر فقط اذن

وبعد ان شرب كل منهما قدحا نخب صحة الآخر تابع مانوك اغا محاضرته :

ـ بينما كنت ذاهباً الى المقهى هذا الصباح ، صادفت صديقاً لا يعز عليكم ، هو ملكون اغا ، وكان ملكون اغا هذا متزوجا فيما مضى من ابنة بارتوغيميوس اغا كما سمعت ، من الرجال الذين يشار اليهم ، لطيبه ، وكرمه ، ووطنيته ، وامانته وكان يملك عدة حوانيت في السوق ، تدر عليه ارباحاً سنوية طائلة ، فلما ماتت زوجة ملكون اغا منذ عدة سنوات . تزوج مرة ثانية من ابنة صانع الحرير نيكوغوس اغا . ولها اخوة كثيرون ، يشتغل احدهم كاتباً عند

امباكوم اغا ، ولأمباكوم اغا هذا ولد خسر معظم اموال ابيه في القمار ، ثم هرب الى روسيا ، وهذا الولد هو ابن اخي حفيد اخت المطران ماركار . وكان اخوها الثاني يشتغل في السوق ، وهو طويل القامة حسن الوجه . أما الثالث فبقي عاطلا عن العمل زمناً طويلا ، حتى كاد يموت من الجـــوع لشدة فقره ، فلمـا انتخب عضواً في اختيارية الحي صلحت اموره وتحسنت حاله ، لن اطيل عليك فبعـد زواج ملكون اغا من ابنة نيكوغوس اغا عاش بضع سنين معهـا في سعادة تامة ، ولكن الحظ لم يمهله ، فتوالت عليه المصائب ، وفقد جميع ما كان يملكه. سأحضره الى هنا يوما ، لترى بنفسك مقدار طيبه ولطفه ، له أخ ساعاتي ، يقيم في بيوك تره ، وهو ماهر في صناعته ، حتى ان طوروس اغا الذي لم يكن يسلم ساعته الى ساعاتي كان يأتمنه على ساعته ، لينظفها ، هـــل تعرف طوروس اغا ؟ انه رجل غريب الاطوار . سأقص عليك احدى غرائبه فاسمع ، واخبرني ان كنت تعرف رجلا في العـالم على شاكلته فهو ...

ومدت المرأة رأسها من الباب تسأل :

ـ أأحضر الطعام ؟

ـ اصبري حتى اكمل حديثي ، الست معي ابيسوغوم اغا ؟ ان الحديث ضروري الا اذا كان وقتك ضيق وتنزعج من سماع الاحاديث.

ـ ماذا تقول ؟... يه ...

ولم يتمكن ابيسوغوم من اتمام جملته لان مانوك اغا قاطعه واردف متمما قصة طوروس اغا :

ـ يشتغل طوروس اغا ـ ذكره الله بخير ـ في الزراعة ويعيش مع عائلته في احسن حال . ويشتري مئونته وجراره وثيابه بنفسه

فليست له ثقة بانسان – ذكره الله بالخير – يشتري اللحم من اللحام مثلا ، وحين يصل الى بيته يزنها فاذا نقصت عدة دراهم ، يعود الى اللحام فيشتبك معه في جدال عنيف حتى يأخذ المقدار الناقص من اللحم . رجل غريب الاطوار ، أراد أن ينظف ساعته مرة فاخذها الى الساعاتي ، وساومه واتفقا على خمسة عشر قرشاً ، على ان ينظفها الساعاتي بحضوره ، لانه كما ذكرت لا يثق باحد .ولا يريد أن يترك ساعته للساعاتي ويمضي ، خوفا من أن يسرق شيئاً منها أو أن يعطل فيها شيئاً عمداً ، ليسبب له مصاريف كبيرة فيما بعد ، كما هي العادة عند اكثر الساعاتيين . فاعتبر الساعاتي شرط طوروس اغا اهانة له فغضب ، الم تكن لتغضب انت لو انك مكان الساعاتي ؟

– اغضب طبعاً .

اجابه ابيسوغوم اغا بصورة آلية لانه لم يسمع شيئاً من قصة مانوك اغا وكان كل تفكيره محصوراً في طبق الطعام المنتظر .

– وزاد غضب الساعاتي حين سمع بعض الكلمات الثقيلة من طوروس اغا – ذكره الله بالخير – وكان عليه الا يقولها اليس كذلك ؟

– هو كذلك .

كان ابيسوغوم اغا مضطراً الى هذا الجواب لانه كان يأمل بالموافقة ان ينتهي الحديث لعلهم يحضرون له الطعام .

– فيطرد الساعاتي طوروس اغا – ذكره الله بالخير – ولكن طوروس اغا ذكره الله بالخير – يأبى الخروج من الدكان لأن في ذلك استصغاراً لشأنه ، هل كنت تخرج لو انك مكانه ؟

ـ لن اخرج

قال ابيسوغوم اغا ذلك وهو لا يدري من اين لن يخرج ، ولماذا لن يخرج ، فهو كما قلنا يجيب على الأسئلة دون أن يسمع كلمة واحدة من قصة طوروس اغا .

ـ وبدأ القتال ، فصفع الساعاتي طوروس اغا ذكره الله بالخير - ورفس طوروس اغا ـ ذكره الله بالخير ـ الساعاتي ، وهذا أقل ما يمكن ان يفعله طوروس اغا رداً على صفعة الساعاتي ، قل ابيسوغوم اغا اقبل رجلك ، اليس كذلك ؟

وذهل مانوك اغا لجواب ابيسوغوم اغا الذي قال متسائلا :

ـ وهل تطبخونه انتم أيضاً بالبندورة ؟...

ـ بالبندورة ؟...

ـ نعم ، نعم ، سمعت انهم يطبخونه بالبندورة في مكان آخر .

ـ الساعة ؟

ـ اية ساعة ؟

ـ ساعة طوروس اغا ؟

ـ ومن هو طوروس اغا ؟

ـ انك لم تصغ اذن الى القصة التي قصصتها عليك

ـ بل اصغيت باهتمام

وكان جواب ابيسوغوم اغا مجاملة ، اذ خجل ان يذكر ان كل همه كان في الطعام ، من الرز الى البندوره وهل يطبخ الرز في استانبول بالبندوره ، وكيف يطبخ ، وانه لم يسمع شيئاً من كلام مانوك اغا .

والحق مع ابيسوغوم اغا في عدم الاصغاء ، لان قصة رب البيت طويلة وابيسوغوم اغا جائع .

ـ قل ابيسوغوم اقبل رجلك ، اليس كذلك ؟

ـ وهل تطبخونه انتم أيضاً بالبندورة ؟ ..

يظن اكثر الناس في هذه الدنيا أن من حقهم أن يمسكوا بانف شخص ما ليجبروه على الاستماع الا احاديثهم ساعات طويلة . وقد لا يجد بعضهم هذا الشخص ، فينشطون للبحث عمن يستمع اليهم ولو دفعوا في ذلك اكبر الاجور ، وهناك من يستأجر مستمعاً براتب شهري . ولقد مررت بمثل هذه المحنة ، وكنت اتصنع الاصغاء بينما افكر بمشاغلي الخاصة ، واجيب على اسئلة المتحدث اثناء الحديث بما يوافق السؤال ، فاذا كان السؤال (اليس كذلك) اجبت بـ (هو كذلك) واذا كان (اليس هذا هو الحق) اجبت (انه الحق بعينه) واذا كان (ألست محقاً) اجبت (معك كل الحق) وما ذلك الا لأضع حداً لحرارة حديثه ،على أن الكارثة هي أن يسألك من يصدع رأسك بالحديث سؤالا تصعب الاجابة عليه ، كأن يترك لك الحكم في قضية ما ، ويسألك بعد انتهاء الحديث الذي لم تصغ اليه ابداً هذا السؤال :

ـ مع من الحق ، مع ماركوس اغا أم مع كيراكوس اغا ؟

فكيف يتسنى لي أن احكم في قضية لم استمع الى تفاصيلها ، هذا مع العلم انني يجب أن احكم بما يوافق المتحدث والا اجرح شعوره . ومع ذلك فقد اهتديت الى اسهل السبل للاجابة على هذا السؤال بما يلي :

ـ يجب انهاء القضية بالتراضي

ـ نعم ولكن مع من الحق ؟

ـ ما الفائدة ؟ وهل تمكن مجاراة الاشرار ؟

ـ نعم ولكن ارجوك قل مع من منهما الحق ؟

ـ لماذا تجبرني على القول يا اخي ؟ وهل يخفى الحق ؟ انه تماما

مثل اثنين × اثنين = اربع .

قد يكتفي بعض المتحدثين بهذا الجواب ، الا أن كثيراً غيرهم يخال اليك انهم سيسلمونك الى الشرطة ان لم تعط الحق لماركوس اغا أو لكيراكوس اغا ، وللتخلص من امثالهم في هذه الحال اعتذر بعمل هام يشغلني وامضي في سبيلي ، الا أن هذه الحيلة لم تنطل على المتحدث في اكثر الاحيان ، لذا لم أر بدا من طرح اللباقة جانبا فقلت :

ـ سيدي ها قد استمعت الى حديثك ساعتين فادفع لي ليرتين اجرة استماعي ولا اقبل سنتيما أقل .

ووافق الرجل على دفع نصف ليرة فقط الا انني رفضتها وهربت من وجهه ، وسمعت عنه بعدئذ انه استأجر مستمعاً بربع ليرة . اين امثال هذا الرجل من (ماسيس) الذي كان يأخذ من الناس اموالهم بدلاً من أن يدفع لهم ليحدثهم .

من الواضح ان ايسوغوم اغا لم يحسن الجواب ، اذ اشعر محدثه حين سأله عن البندورة انه لم يكن يستمع الى حديثه مطلقاً ، وقال ليغطي خجله :

ـ استمعت باهتمام .

هل احسن عملا بهذا ؟ كلا بل اساء ، ولو كنت مكانه لقلت لمانوك اغا صراحة : « منوك اغا ، انظر الي ، اذا اردت ان تتكلم فلا تنس الرحمة والشفقة ، انني جائع منذ ثماني ساعات ، وليست بي حاجة لمعرفة ماريروس اغا أو ان كيورق اغا هو ابو من ، وأن الساعاتي صفع طوروس اغا ، أو أن طوروس اغا رفس الساعاتي » . نعم كنت أقول له ذلك صراحة . وليت الامر يقتصر على الاصدقاء ،

بل ان اكثر الكهان ، يعظون الناس اربع ساعات متوالية بقصد التكلم فقط ، وينزعجون اذا ترك أحد الناس الكنيسة اثناء الوعظ ، ولقد قلت مرة لمطران كان في طريقه الى صومعته بعد خمس ساعات من الوعظ :

ـ الى أين يا سيدي المطران ؟

ـ الى صومعتي لا بدل ثيابي لكثرة ما عرقت .

وسألني بدوره

ـ وأنت الى أين تذهب ؟

ـ الى البيت لتبديل ثيابي ايضاً .

واصبح المطران منذ ذلك اليوم يختصر وعظه .

ولكن الجرأة خانت ابيسوغوم اغا فاعطى الفرصة لمانوك اغا ليتابع كلامه بعد أن اجاب باقتضاب على سؤال البندورة فقال :

ـ اننا هنا نستعمل البندورة مع الرز والبرغل ومع كثير من المآكل التي يدخل فيها اللحم ولكننا لم نستعملها قط في اصلاح الساعات .

ـ اذن توضع البندورة مع الرز ، هذا ما كنت أود معرفته ، شكراً .

ـ هل تحب الرز بالبندورة أم لا ؟

ـ احبه بالبندورة .

ـ كما تشاء . لنعد الآن الى حديثنا ... اين وصلنا ؟ ... هه ، كان حديثنا عن طوروس اغا . طوروس اغا هذا رجل غريب الاطوار ـ ذكره الله بالخير ـ له نوادر كثيرة . سأقصها عليك في ليلة اخرى ونقضي الوقت معها . بالاختصار ، صادفت هذا الصباح

ملكون اغا...

ودخلت في هذه الآونة ربة البيت تحمل الطعام قائلة :

ـ جئت بالطعام ساخناً لتأكلوا .

فقال ابيسوغوم اغا :

ـ نعم ، نعم ، لنأكل فانا جائع جداً .

ـ تفضل ...

ـ شكراً.

قال ابيسوغوم اغا هذا ، وأدخل الملعقة في فمه وما كاد يفعل حتى قفز من مكانه .

وقالت ربة البيت باعتذار :

ـ اظنه ساخناً جداً ، ارجو المعذرة يا ابيسوغوم اغا .

واضاف مانوك اغا :

ـ اشرب فوقها قليلا من الماء ابيسوغوم اغا .

ـ لا بأس ، لا بأس...

وقال الزوج موبخا :

ـ لماذا لا تنتبهين الى حرارة أو برودة الطعام يا امرأة .

ـ ارجو ابيسوغوم اغا أن تغضي عن تقصيرنا اليوم .

ـ لا بأس ، ليس الأمر بذي اهمية .

ـ سأقص عليك ما جرى معنا اليوم ريثما يبرد الطعام .

الا أن الزوجة قالت معترضة :

ـ مانوك اغا ، لا تصدع رأس ابيسوغوم اغا فربما لا يعجبه هذا الحديث .

ـ اريد أن احدثه لنمضي الوقت كي لا يضجر .

ـ دع الحديث لليلة أخرى، فهو متعب ولا يستطيع الاصغاء اليك

ـ اظن ان ابيسوغوم اغا يحب اخبار الامة ولا يمل من سماعها :

وقال الضيف :

ـ نعم ، استمع اليها بكل سرور ، الا انه من الافضل ان نرجىء هذا الحديث الى الغد كما تقول زوجتك لاني شديد التعب .

ـ كما تشاء ، وليكن ما تريد ، ان الحديث عن حينا واخباره شيق جداً ولو كان ملكون اغا هنا وحدثك عنها لانفجرت من الضحك .

وجددت الزوجة الدعوة الى الطعام قائلة :

ـ تفضلوا قبل أن يبرد الطعام كثيراً .

ولم يكد ابيسوغوم اغا يسمع هذه الدعوة حتى انقض بملعقته على صحن الرز .

ـ أتشرب كأساً أخرى من العرق ابيسوغوم اغا ؟

ـ كلا ، مع الشكر .

ـ املأي له كأساً من النبيذ اذن .

ـ هذا غير معقول مانوك اغا ، هل يشرب النبيذ مع الرز ؟

ـ لِمَ لا ؟ هيا احضريه لنرى هل يعجبه نبيذنا .

فخرجت الزوجة ، ولما عادت كانت تحمل لحماً مسلوقاً .

وكان ابيسوغوم اغا يأكل بشهية فائقة حتى أنه أخذ يبتلع اللحم دون أن يمضغه .

ـ حمدالله شبعنا الليلة أيضاً .

قال ابيسوغوم اغا ذلك بعد أن اصبحت معدته كمعدة الكاهن

ثم رسم على وجهه اشارة الصليب وصلى صلاة الشكر وقام يبحث عن ماء يغسل به يديه .

فسألته المرأة :

ـ أتغسل يديك بعد الاكل ؟

ـ اذا وجدت ماء ...

ـ اننا لم نعتد ذلك ، ولكن انتظر فسأحضر لك ماء لتغسل يديك .

وبعد أن انتهى ايبسوغوم اغا من غسل يديه وتنشيفهما سأل المرأة عن الغرفة التي سينام فيها .

فقادته الى غرفة في الطابق الثاني تركته فيها وعادت .

كانت غرفة النوم صغيرة ، فاذا قلنا انها بطول ايبسوغوم اغا نكون قد بينا مقاسها الحقيقي ، وأمام نافذتها الوحيدة التي تطل على الشارع فرش فراشه ، وفي زاوية منها كرسي امام منضدة عليها مرآة صغيرة وزجاجة ماء وكأس ومشط تؤلف بمجموعها اثاث الغرفة .

فلما دخل ايبسوغوم اغا اليها رفع يديه وأخذ يحمد الله الذي خلصه اخيراً من المشاكل ، وانه انفرد الى نفسه ، كالسجين الذي يرى النور بعد الظلام ، وبعد أن خلع ثيابه القى بجسمه على الفراش ، وهو يقول :

ـ انا اعرف ما سأفعله بعد الآن ، سوف لا التقي بانسان ، لاني لم احبب سكان استانبول انهم يريدون أن يأخذوا مالي ويزعجوني بحديثهم ، الذي لا يهمني في شيء . ما جئت الى هنا الا لآخذ زوجة وأعود ، سأطلب البنت التي تعجبني ، فاذا اعطوني اياها اخـــذتها

واذا لم يعطوني اياها ، اذا لم يعطوني ... ولكن لِمَ لا يعطونها ؟... أيوجد خير مني يليق بها .

وذهبت الى عملي ، والا فهم احرار .. ولكن لِمَ لا يعطونها ؟ ... ايوجدخيرمني يليق بها ، غداً يكتب الصحفي اسمي باحترام واكبار ، فيرجوني الكثير ان اتزوج من بناتهم ... وبما اني لا أريد اكثر من واحدة ... لذا سأنتخب منهن من تلائمني ... واطلبها ... فأخطبها ... ثم اتزوجها ...

ولما انتهى ابيسوغوم اغا الى هذا القرار نام قرير العين .

و

نام ابيسوغوم اغا من شدة التعب نوما عميقا تلك الليلة ، وما كان ليصحو من نومه في اليوم التالي لولا صراخ الباعة المتجولين ، الذي اطار النوم من عينيه ؛ والنوم فيه راحة للمتعبين ، ودواء للمتألمين . هنيئا لمن ينامون ولا يصحون باكراً ، أو ، لا يصحون

الباعة المتجولون يصرخون باصوات منكرة والحراس الليليون يخبطون الارض بهراواتهم بشدة

ابداً ، لانهم قل ما يشعرون بالآلام التي تقضي على الانسان. ولكن ما العمل فحرية النوم مفقودة في استانبول ، لان الحراس في الليل والباعة المتجولين في النهار باصواتهم المنكرة يقضون مضاجع النائمين، فيضطرب النوم في اعينهم ، ويهرب الى حيث لا يدري . وقد اوحى لي ذلك ان اقترح على الملاك جبرائيل ، اذا فشل في ايقاظ الاموات يوم القيامة ، ان يستعين بباعة النهار وحراس الليل في استامبـول ، كي اضمن له النجاح في مهمته .

وهكذا اضطر ابيسوغوم اغا الى النهوض باكراً ، فقام الى صندوقه ، وفتحه ، وبدل ثيابه ثم غسل وجهه ولبس بذته الجديدة .

بعد أن تأكدت ربة البيت من يقظته ، صعدت اليه ، ودعته لاستقبال زائر يريد مقابلته .

فقال لها :

ـ ليدخل .

ـ حسناً . اتشرب القهوة بالحليب أم بلا حليب

ـ اشرب حليبا بلا قهوة

ـ اذن تريد حليبا فقط

ـ نعم احضري حليبا فقط

فلما ذهبت المرأة قال الرجل الضخم لنفسه :

ـ لنر من الزائر . اظنه اباً علم بمجيئي الى استامبول ، فحضر ليقابلني قبل غيره ليزوجني ابنته . وسوف لا اعطيه وعداً قاطعـاً اذا لم اتعرف على طبائع ابنته . لاني اريد أن اعرف كل شيء عنها ، فافحصها ، ثم استشير ابي ، لان حبي لا يكفي ، بـل يجب ان يحب ابي أيضاً زوجتي ، ولا يكفي ابي ، بل يجب أن تعجب جميع الناس ...

وبينما هو يفكر ، دخل شاب في الثلاثين من عمره وتقدم من ابيسوغوم اغا بخطى سريعة وصافحه وقدم احترامه وقال :

ـ طاب يومك ، يا سيدي الجليل

ثم اردف يقول وهو يتراجع باحترام زائد ويجلس على كرسي صغير :

ـ اجلس ابيسوغوم اغا ، ارجوك ، انا لا استحق ان تقوم لي .

فجلس ابيسوغوم اغا متكئاً على وسادة .

واضاف الشاب وهو يفرك بيديه :

ـ كان من واجبي أن احضر اليك البارحة لأهنئك بسلامة الوصول ، ولكني علمت ذلك متأخراً . لذلك ارجو منك الصفح والمغفرة .

ـ ليس في مجيئك اليوم تقصير يتطلب الصفح .

ـ كرمك ولطفك هو الذي يجعلك تقول هذا ، ولكني اعرف تقصيري ، وانه لفادح حقاً ، اذ كيف يحضر الى استامبول رجل مشهور مثلك ولا يأتي للقائه مصور ، اليس هذا بتقصير ، انه تقصير التقصير ، ووصمة دامغة بحقي .

ـ على كل حال ، ليس هذا بتقصير ، حتى انك لو لم تحضر ابداً لما كان تقصيراً بالنسبة لي .

ـ هذه منتهى الشهامة

ـ انا لست شهما ابداً .

ـ ليكن ما تريد ، ما دام الجدال عديم الفائدة ، وما جئت الآن الا لأضع نفسي تحت تصرفك وانتظر أوامرك بسحبها ،

ان شئت هنا ، وان شئت ففي محلنا ، فهو سيان عندي وما علي الا تنفيذ أوامرك.

ـ اتسحب اسناني ؟ انها سليمة .

ـ لم اقصد اسنانك ، فانا اعرفها سليمة ، كما اعرف انك بصحة جيدة ، ولكني اريد أن اسحب صورتك .

ـ لم يسحب أحد صورتي قبل الآن ، ولا أريد أن يسحبها أحد بعده ، لأني انظر في المرآة كل يوم .

ـ وهل يمكنك ارسال مرآة الى أحد اصدقائك بدلا من الصورة يا ابيسوغوم اغا .

ـ لماذا أرسل صورتي ؟ اذهب اليه بنفسي .

ـ الحق ما تقول ، ولكن ضميري لا يرتاح اليه فاذا لم اصورك اشعر بوضاعة نفسي ، لذا دعني اصورك ، لتربح ضميرك أيضاً .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن الناس سيضحكون عليك ، هل سمعت بشخص بارز مثلك جاء الى استامبول ولم يتصور ؟

ـ لماذا؟

ـ الامر واضح ، لمشاهير الرجال اصدقاء عديدون ، ولما كنت انت منهم فلا بد لك من استقبال كبار الشخصيات اليوم أو غداً . وسيهديك كل منهم صورته ، وعليك بالمقابل ان تهدي كلا منهم صورتك .

ـ واذا لم اهدهم يضحكون علي ؟

ـ يضحكون فقط ؟ بل يتخذون منك اداة لتندرهم وتغامزهم

ـ عجيب ...

هل سمعت بشخص بارز مثلك جاء الى استانبول ولم يتصور ...

ـ وهل سمعت عن رجل بمثل لطفك لا يسمح بتصويره ؟ انه عيب كبير .

ـ عيب كبير ... !

ـ نعم عيب كبير جداً ، وليس خروجك عاريا امام الناس بأكبر عيب ، من عدم تصورك .

ـ لم اكن اعرف هذا .

ـ الادب واللياقة تحتم على كل منا أن تكون لديه صورته الشخصية .

ـ وهل يعلن الصحفيون ان لدى ابيسوغوم اغا صورة شخصية ؟

ـ هذا أمر لا يتعلق بالصحفيين

ـ الا يتكلمون اذن عنها في الكنيسة ؟

ـ ولماذا يتكلمون عنها ابيسوغوم اغا ؟ هل تريدان تسخر مني ؟..

ـ اسخر منك ؟ ابداً ، ليست هذه عادتي ... وليس لي الحق في السخرية من الآخرين .

ـ لا تنزعج .

ـ بل سأنزعج ، لان من عادتي ان أرى كل شيء معقولا

ـ حسناً اذن ، بأي وضع تريد أن اصورك .

ـ لا اريد ان اتصور ، اذ يظهر لي الا فائدة من الصورة .

ـ ماذا تقول ؟ واية فائدة اكبر منها ؟ قد ترغب في زيارة صديق ووقتك ضيق ، فما عليك حينئذ الا ان ترسل اليه احدى صورك وينتهي الامر . وان كنت متزوجا فترسلها الى زوجتك كي تستمتع برؤيتك في غيابك . وان لم تكن متزوجا ، فستجد زوجة

باسرع مما تظن ، لان البنات حين يرين صورتك يتناقلن اخبارك فيما بينهن حتى تأتيك احداهن وتتزوجها ، اصبحت للصورة بالنسبة لكل امرىء في هذه الايام اهمية اكبر من الطعام ، لذا ارجو ان تقتنع بقولي وهيا بنا اصورك قبل ان يمضي الوقت .

ـ كيف وأين سترى البنات صورتي ؟...

ـ حين ترسلها لأصدقائك ، سيعرضها هؤلاء في مجموعاتهم على الناس .

ـ وماذا يستفيد الناس من رؤيتها أو عرضها ؟

ـ ليتذكرك اصدقاؤك على الدوام أو يتعرف غيرهم على شخصك ...

ـ وهل اخسر شيئاً ان نسوني ؟ انا لا يهمني ان اذكر أو لم اذكر فالامر عندي سيان وأنا لا ادفع مالاً في مثل هذه الخرافات ، ولا اثق بما تقول .

ـ انك تهينني يا سيدي .

ـ لماذا اهينك ؟

ـ سيدي اتعرف انك جرحت فنانا جرحا بليغا .

ـ أنا جرحته ؟

ـ نعم أنت ...

ـ اتتهمني بما لم أفعل لاني لم اسمح لك بتصويري ؟... انني لم اجرح أحداً حتى الآن .

ـ ولكنك جرحتني اليوم .

ـ اذهب وارفع شكواك الى الشرطة ، فلا وقت عندي لهذا الكلام الفارغ .

ـ لا حاجة بي الى الشرطة وانما أرجوك ان توفق بين الكلمات التي تتفوه بها وبين ادبك الجم .

ـ انا لم اقاتل أحداً أذهب انت ووفقهم ان كانوا متخاصمين .

حمل مانوك اغا حليب ابيسوغوم اغا ووضعه على المنضدة وقال:

ـ تفضل اشرب حليبك

فسحب ابيسوغوم اغا كرسياً وجلس عليه أمام المنضدة وبدأ يشرب الحليب

وابتدر مانوك اغا المصور بقوله :

ـ كيف تريد أن تصورا ابيسوغوم اغا أصورة نصفية أم بالطول الكامل ؟

فرد ابيسوغوم اغا قائلاً :

ـ لا صورة نصفية ولا كاملة .

ـ قررت أن تتصور وأنت جالس على الكرسي اذن ؟

ـ لا

ـ فائم اذن ؟

ـ لا .

ـ صورة جانبية ؟

ـ قررت الا اتصور ابداً .

ـ هذا غير ممكن ، لأنه انتقاص من قدرك يا ابيسوغوم اغا . والناس في هذه الايام كبيرهم وصغيرهم يتصورون عدة مرات كل عام ، ولا تسل عن الاطفال الذين لا يبلغون سوى شهرين من العمر فلهم صورهم أيضاً ، ولو وجدوا سبيلا الى تصوير الاجنة لما تأخروا .

فقال المصور :

لم اتوصل الي اقناع ابيسوغوم اغا ، ويظن اني جئت لاحتال عليه .

فأضاف مانوك اغا :

ـ لا ، لا ، ليس مصورنا مثل أولئك الرجال .

ـ قلت إن شخصاً بارزاً مثل ابيسوغوم اغا يجب ان يتصور حتماً .

ـ نعم يجب أن يتصور في عدة أوضاع ، أي اثنتي عشرة صورة صغيرة ، اثنتي عشرة متوسطة واثنتي عشرة كبيرة ، ثم اثنتي عشرة صورة بطول القامة ، اثنتي عشرة جالس على كرسي واثنتي عشرة مضجع على جانبه ، واثنتي عشرة صورة في جلسة مستقيمة ، اثنتي عشرة مسند الرأس على اليد واثنتي عشرة واضع رجلا فوق رجل واثنتي عشرة يداً فوق يد واثنتي عشرة يدك على المنضدة اثنتي عشرة نائم ، اثنتي عشرة ممسك بعصا ، اثنتي عشرة مبتسم ، اثنتي عشرة عابس وأخيراً اثنتي عشرة بالشكل الطبيعي ، نعم ابيسوغوم اغا ، اذا نقصت واحدة مما ذكرت نقص شرفك معها .

ـ احقاً ما تقول مانوك اغا ؟

ـ ليس الكذب عادتي . ان لم تكن معك هذه الصور كلها ، احتقرك الناس . وكل رجل عظيم عنده مثلها .

ـ أمتأكد انت مما تقول ؟

ـ نعم كل التأكيد .

ـ كيف قلت اذن ان صغار الناس ايضاً عندهم صور ؟

ـ ليس عند الصغار صور بهذا المقدار ، وقد يكون عندهم ثلاثة أو ست صور على الاكثر .

نعم يجب ان تكون لديه صور في عدة اوضاع ، أي ١٢ صورة صغيرة ، ١٢ متوسطة ، ١٢ كبيرة ، ١٢ بالقامة الكاملة

ـ لم يخطر ببالي مرة ان للصور كل هذه الاهمية هنا .

ـ نعم ، تعطى الاهمية الآن للصور فقط ، وبقدر ما تكون الصورة جيدة يكون اهتمام الناس اكثر .

ـ ما دام الناس كلهم يتصورون ، فكيف يعرفون اني من العظماء ، كان يجب ان يتصور العظماء فقط وعندئذ ...

ـ ولكن صور العظماء تختلف ، كأن تكون كبيرة ومسحوبة على ورق صقيل مثلا .

ـ الا يمكن ان نصور خدمي معي وهم يقدمون احترامهم لي .

ـ يمكن طبعاً .

ـ أحقاً ما تقول ؟

ـ نعم.

ـ عندي دجاج وبقر وغنم وخيل وبط ايمكن تصويرها أيضاً في احدى زوايا الصورة ؟

ـ لا هذا لا يمكن ، يمكن تصوير الخدم فقط ، اليس كذلك يا سيد تيرينيك ؟

فاجاب المصور :

ـ هو كذلك .

وسأل ابيسوم اغا ثانية :

ـ الا يمكن ان يكتب تحت الصورة ان هـذا الرجل يملك خيلا وبقرا وحميرا ؟

ـ يمكن ، ولكن لم تجر العادة ان يكتب مثل ذلك قبل اليوم . وما الفائدة من كتابته سيعرف كل انسان ما عندك دونما حاجة الى كتابته .

ـ اتستطيع ان تصورني فوق الحصان ؟

فاجاب تيرنييك :

ـ نعم

ـ والحصان راكض ..:

ـ صعب

ـ حسناً سنرى غداً .

ـ اذا شئت احضر الآلة وأصورك هنا .

فانبرى مانوك اغا قائلا :

ـ نعم، نعم، احضرها هنا ، لأن كبار الرجال يتصورون في بيوتهم ، والظاهر ان مايريد ان يقوله الرجل ويستحي من ذكره هو طلب المال بلا شك فلا يليق بابيسوغوم اغا والحالة هذه ان يأتي الى محلك .

ـ على رأسي .

قال تيرينيك ذلك ثم وقف وهو يفرك كفيه ويتمتم بكلمات كأنه يستحي من الجهر بها .

والظاهر ان ما يريد ان يقوله الرجل ويستحي من ذكره هو طلب المال بلاشك .

وقال ابيسوغوم اغا يعلن انتهاء الزيارة .

ـ احضر آلتك الى هنا .

فاجاب المصور وهو يفرك كفيه ويحاول الكلام :

- كما تريد . .

وحين رأى ابيسوغوم اغا المصور واقفاً لا يتحرك اردف يقول :

- قلت لك أحضر الآلة غداً .

عندئذ افصح تيرينيك عن قصده :

- نعم ، فهمت سأحضر الآلة غداً ، ولكننا اعتدنا .. ارجو المعذرة .

- قل

- ارجو الا يثقل عليكم كلامي .

- لن يثقل ، قل

- اعتدنا أن نتقاضى الاجرة مقدما اذا لم يكن التصوير في محلنا ... وما ذلك لعدم وجود الثقة ، وانما علينا ان نحترم عادتنا .

- ما أبشعها من عادة ...

- انها عادة على كل حال .

- حسناً ، انكفي ليرتان ؟

- نعم تكفي .

فدفع ابيسوغوم اغا ليرتين الى المصور الذي اخذها واختفى وراء الباب .

ز

كثير من الناس يريدون التظاهر بما ليس عندهم ، ويوجد غيرهم ينكرون ما عندهم ، وهناك فئة ثالثة يريد اصحابها التظاهر بـــا

عندهم ، ومن هذه الفئة صاحبنا ايسوغوم اغا ، لأنه يريد ان يعرف جميع الناس انه يملك مزارع ومواش ، ولم يكن ليبخل بماله لهذا السبيل. فلما اكدوا له أن عظماء الرجال يتصورون ، رضي ان يتصور ولما كان يشك في المصور ويخشى على ماله من الضياع ، لذلك سأل مانوك اغا بعد ذهاب المصور :

ـ الا يعتبرونني رجلا بين الرجال ان لم اتصور ؟

ـ اعوذ بالله ، ولكن الرجال من طبقتك يتصورون جميعهم ، فيجدر بك ان تفعل مثلهم ، حتى اذا طلب احدهم صورتك ، ،واجبته ان ليس عندك صورة ...

هكذا ادخن نرجيلة وأمامي رجلان يحييانني

ـ ماذا يحدث ؟

ـ لا شيء ... ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟ هل يصادرون مزارعي واملاكي ؟ .

ابداً ... ولكن . . . يعتبرونك جاهلا ، ولا يقـــدمون لك الاحترام اللائق برجل عظيم .

ـ فهمت ، كيف يجب ان تكون صورتي لئلا يظن الناس انني فقير ، لأنك قلت ان الفقراء ايضاً يتصورون .

ـ اذا اردت ان تتصور كرجل عظيم ، يجب ان تكون الصورة كبيرة وأنت جالس على كرسي .

ـ وأن البس ثيابي الجديدة اليس كذلك ؟

ـ طبعاً .

أو أن أضرب أحداً ... مثلا وكيل مزارعي

ـ وان اعلق ساعتي الذهبية .

ـ بدون شك .

ـ وان ادخن نرجيلة ، وان يقف امامي خادمان يقدمان التحية ومن ورائي خادم ثالث يمسك بعنان حصاني .

ـ نعم ، نعم

ـ وماذا يجب أيضاً لاظهر في مظهر فخم

ـ يكفي ما ذكرت .

ـ كنت أريد أن أضرب خادميّ واطردهما من وجهي ، فيخرجان منحني الرأس ،.. أو أن أوبخ احداً ... كأن اصرخ في وجه وكيل مزارعي « يا رجل ، كم مرة امرتك ان تعامل الفلاحين بلطف ، والبقر بالاحسان ، وان يكون الزرع والحصاد في اوانهما ، وبما انك لم تنفذ اوامري ، اذهب فانت مطرود » . عندئذ يمسح الوكيل دموعه وينكب على قدمي مستسمحاً نادما ويقول: « رحمة باطفالي اغفر لي ، لقد عشت على خيركم طول عمري، فربيتك وحملتك على كتفي حين كنت طفلا » ... وبالاختصار الايمكن أن تصور مثل هذه الامور ؟

ـ سنفكر في هذا غداً ، اما الآن فلأكمل لك قصة البارحة التي بقي نصفها . حين رآني ملكون اغا ...

ـ أو ان استلقي على ظهري ويخلع خدمي سروالي ...

ـ حين رآني اقترب مني و ...

ـ الا يكون افخم لو دخنت نركيلة ؟

ـ اقترب مني وامسك بيدي قائلا: «لن نشتغل اليوم لأن خصومنا قد ينتخبون عن الحي » .

ـ أو امسك بسوط طوله عشرة اذرع ...

ـ دع هذه الامور الى الغد يا ابيسوغوم اغا ، واسمع الآن قصتي ، ولما امسك ملكون اغا بذراعي سحبني الى المقهى ، حيث كان الاصحاب يلعبون الشدة .

ـ اعتقد ان الصورة تكون اجمل اذا كان السوط قصيراً .

لقد حضرت مثل هذا الحديث اكثر من مائة مرة في حياتي ، وفي كل مرة كان يريد كل متحدث ان يقاطع رفيقه ، ليقول هو ما يريد قبل غيره ، نعم مائة مرة ، مرتين في المجتمعات العامة وثمانية وتسعين مرة في مجلس النواب . وهذه هي المرة الاولى بعد المائة . وقد دفعني الشيطان مرة فقلت لواحـــد من الناس « اسكت ودع صديقك يكمل حديثه ثم تكلم انت » ولكني بعد ان قلت هذا رأيت انني جرحت شعوره ، ولذلك قررت البقاء على الحياد وانتظار نتيجة هذا الحديث ، الذي غالباً ما ينتهي في مجلس النواب الى مشاجرة بين المتحدثين . فاجاب مانوك اغا :

ـ الحق معك ، السوط القصير يظهر في الصورة اجمل ، ولكن يجب ان يكون المختار رجلا لطيفاً مستقيما ...

ـ انت تعرفه جيداً ؟

ـ لا تفيد معرفتي انا فقط ، لأنه ينتخب بالتصويت .

ـ بالتصويت ؟

ـ نعم فأهل الحي هم الذين ينتخبونه .

ـ ماذا تقول ؟ أيجب أن يجتمع اهل الحي لانتخاب السوط ؟

ـ اننا نتحدث عن المختار .

ـ من اين جئت بالمختار ، كنا نتحدث عن السوط .

ـ لا تنزعج ايسوغوم اغا ليكن ما تريد .

ـ وما الداعي للانزعاج ... ما علينا الا ان نشتري واحداً غداً

ـ نشتري .

وفي هذه اللحظة فتح الباب واطل منه رأس امرأة .

كان رأس امرأة تدعى شوشان ، ومهنتها خطابة ، تبحث عن زوجات للعازبين وازواج للعازبات وتتقاضى على ذلك عمولة ، وقد تفرق بين الازواج فتأخذ منهم مكافآت على عملها . أما عمرها فهو على زعمها ستة وثلاثون سنة — أما انا فأقول انه ستة واربعون سنة لانني اعتدت ان اضيف الى عمر المرأة الذي تعترف به عشر سنوات — . ولقد ترك الجدري آثاره على وجهها الاسمر الطويل، الذي تؤلف الوجنتان نصفه ، امتد بينهما انف طويل ولها حاجبان عاليان كثيفان يظللان عينين صغيرين لا تستقران على شيء ، ولا يزيد عرض جبهتها عن الاصبعين ، كما تساقط معظم شعر رأسها على اثر مرض اصابها .

بعد ان اطل رأس السيدة شوشان من الباب دخل جسمها وقالت :

ـ ان كان حديثكما سراً رجعت .

فاجاب مانوك اغا :

ـ كلا . كنا نتكلم عن المختار .

فاضافت السيدة شوشان وهي تحني رأسها لايسوغوم اغا باحترام وتجلس على حشية على الارض :

ـ ليذهب المختار الى الجحيم

وقال مانوك اغا مرحبا :

ـ اهلا بك يا سيدتي

ـ شكراً، واهلا بك ياابيسوغوم اغا ، كيف وجدت مدينتنا ، هل اعجبتك ؟

ـ اعجبتني كثيراً .

ثم سألها مانوك اغا :

ـ ماذا جئت تعملين هنا . امشروع خطوبة أم ماذا ؟

ـ صدقت ، جئت في مهمة الى البيت المقابل ، ودخلت لزيارتكم بهذه المناسبة ، اريد أن اخطب ابنة انترام الي ابن جيرانكم ، وكان الامر في حكم المنتهي ، لولا ان السيدة مارتا رغبة منها في اعطائه ابنتها نددت بابنة انترام ، وعلى الاثر تردد الشاب في الزواج منها . ولما جئت لاقنعه وجدته قد خرج وسأعود اليه غداً .

ـ انعرفين فتاة تصلح زوجة لابيسوغوم اغا ؟

فنظر اليها ابيسوغوم اغا باسما .

واجابت السيدة شوشان وهي تمسح انفها بمنديل ابيض :

ـ لقد اخبرتني زوجتك ان ابيسوغوم اغا عازب ، فجئت اليه لهذا الغرض .

فقال ابيسوغوم اغا وهو يقدم لفافة تبغ الى السيدة شوشان :

ـ انني افكر في هذا الامر فعلا .

ـ ما دمت تفكر فيه ، فانا على استعداد لاجد لك البنت التي تريدها ، انني امارس هذه المهنة منذ اكثر من عشرين عاما ، والجميع يعرفوني . اخبرني اولاً أي نوع من البنات تريد ؟

لما رأى مانوك اغا ابيسوغوم اغا ينساق في الحديث مع السيدة شوشان ، خرج من الغرفة بانتظار فرصة اخرى يتم له فيها قصة

المختار التي لم تتم .

فاجاب ابيسوغوم اغا ضاحكاً :

ـ اريد فتاة جميلة .

ـ اعرف انك تريدها جميلة ، ولكن هل تريدها غنية .

ـ نعم

ـ محتشمة ؟

ـ طبعاً .

ـ في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر؟

ـ تماما

ـ تعزف على البيانو ؟

ـ يجب ان تعزف

ـ ترقص جيداً ؟

ـ كما تقولين .

ـ حسنا . اعرف فتاة كما تريد ، الا ان هذا النوع من البنات لا يقمن باي عمل في البيت . فالبنت منهن تجلس من الصباح الى المساء، لتغني وترقص ، أو تتمشى طول النهار . انني اقول لك ذلك لئلا تلومني فيما بعد . وتوجد فتيات لا يتزوجن الا من يحبن وقد يرضين بالزواج ثم يهربن مع حبيبهن ويتركن ازواجهن ينتظرون .

ـ ماذا تقولين ؟ انا لا اريد هذا النوع من البنات .

ـ ولكن توجد بنات يتلهفن عليك .

ـ مثلهن أريد

ـ ولكن هناك من تعيش شهراً مع عشيقها ولا تذكر اسمك ابداً

ـ هذه لا اريدها .

ـ ولكن هنالك من لا تريد الانفصال عنك دقيقة واحدة.

ـ مثل هذه اريد

ـ لا تنزعج اذا قلت لك ان كثيراً من الرجال يتركون نساءهم لغيرهم أو يتغاضون عن عبثهن لقاء مبلغ من المال يأخذونه من ابائهن .

ـ احقاً ما تقولين ؟ وهل يوجد مثل هؤلاء الرجال ؟

ـ اكثر من شعر رأسي .

ـ وهل ينظر أحد في وجوههم .

ـ جميع الناس . يبررون فعل الزوجة بان الشيطان اغواها ، ويقدسون الرجل على انه لا يعرف شيئاً مما تفعله زوجته .

ـ ايه ، لا اريد ... اكاد انفجر ، عدلت ، سأتزوج في بلدي .

ـ ومع ذلك توجد من تفديك بروحها .

ـ اذا وجدت واحدة مثلها اتزوج

ـ سأجد لك ما تريد ، ولم اسرد عليك كل هـــذا ، الا لاختبر رأيك في البنت التي تريدها .

أرى أن الحق مع السيدة شوشان ، لاننا نرى كثيراً من الزيجات تدعو الى العجب . ولقد كتبت مرة بدافـــع من الفضول تسجيلا لرصيد الحب في قلب رجل متزوج ، فوجدته في نهاية العام وقد افلس من الناحية الاخلاقية ، وقاطعته شخصياً على الاثر ، ولكني رأيته يلقى أكبر الاحـــترام في المجتمعات وكأنه مثال للطهارة والشرف . فعجبت اشد العجب ، وعدت الى السجل الذي كتبتـه عنه فلاحظت ان زوجته التي انا ، صديق زوجها ، قد وضعته مع مال امها وسجلته في حقـــل الممتلكات . ولو نشرت رصيد الحب يوما

لاذهلت كبار المحاسبين ، لانني اعرف زوجات سجلن ازواجهن في حقل المصاريف العامة ، وغيرهن سجلنهم في حقل الواردات ، واخريات سجلنهم في حقل البضائع المختلفة ، ومنهن في حقل المدفوعات، أو الاوراق المقبوله . وقلما تجد زوجات يسجلن ازواجهن شركاء في الحب .

واردفت وسيطة الحب تقول :

ـ الزواج شيء جميل جداً ، فالمتزوج يرى نفسه كل يوم كأنه في الجنة ...

ـ هذا ما يدفعني الى الزواج .

ـ ولكن اذا لم تنسجم زوجتك مع طباعك فانت كل يوم في جحيم تحرقك بنارها .

ـ وهذا ما يجعلني اخشى الزواج .

ـ اسمع انك رجل كبير وتريد ان تتزوج من بيت كبير اليس كذلك ؟

ـ نعم ، نعم ، أريد ان اتزوج من بيت كبير .

ـ سأجد لك فتاة من بيت كبير ، ولكن هل تتكلم انت الفرنسية ؟

ـ ايجب علي ان اتكلم الفرنسية لاتزوج من بيت كبير ؟

ـ نعم ، لأن بنات البيوت الكبيرة يتكلمون الفرنسية . واذا تكلمت الزوجة مع أحد بلغة لا يفهمها زوجها تدب الغيرة في قلبه .

ـ لا بأس ، أتعلم اللغة الفرنسية .

ـ وفوق هذا ، يكون الزواج تعسا ان كانت الزوجة تعرف اكثر من زوجها .

ـ هو كذلك ، انا من هذا الرأي ايضاً .

ـ وهل تفهم شيئاً من الموسيقى الغربية ؟

ـ ابداً ، بالعكس امل من سماعها .

ـ ماذا ستفعل اذن ، اذا جلست زوجتك ساعات طويلة امام البيانو تعزف الحانا غربية .

ـ لا اسمح لها ، لاني لا افهمها .

ـ ولكنها تجد لذة فيها .

ـ وهل يحق للزوجة ان تزعج زوجها ؟

ـ وباي حق يمنع الزوج زوجته عن تسليتها ؟

ـ ما دام الامر كذلك ، لا أريد ان اتزوج ابداً .

ـ لا يجوز الا تتزوج ، ولكن باستطاعتك تعلم البيانو فتنسجم مع زوجتك .

ـ اباستطاعتي ان اتعلم ؟

ـ لِمَ لا ؟ ان تتعلم انت على البيانو اسهل بكثير من ان تنساه زوجتك .

ـ وجدنا اذن مخرجا من هذه الورطة .

ـ لا تلمني على اقوالي هذه ، لأنني اريدك ان تعلم كل شيء مقدما ، لئلا يسود وجهي معك واكون مسؤولة عن النتائج . وأنا اعرف بنات من جميع الطبقات : الراقية ، والمتوسطة ، والفقيرة ، ومن كل من الطبقات الثلاث عندي بنات للزواج ، فاستشر كيسك ثم قل ، اريد من هذه الطبقة . ولا يخفى عليك ان الطبقة الراقية تكون غالية جداً وتليها المتوسطة ثم الفقيرة وهي رخيصة .

ـ لا اريدها غالية جداً .

ـ حسناً . اتريد البنت بيضاء أم سمراء ؟

ـ اريدها بيضاء .

ـ وعيناها ، سوداوان أم زرقاوان ؟

ـ سيان عندي ، لانني احب العيون السود والعيون الزرق على السواء ...

ـ كلا ، يجب ان تختار وتبين اختيارك ، فما لبنت عين سوداء واخرى زرقاء .

ـ لتكن زرقاء اذن .

ـ حسنا . قامتها وشعرها ...

ـ طويلة ، طويل .

ـ خصرها .

ـ ليكن خصرها نحيلا ، ولكني لا اريدها ضعيفة ، ويجب ان يهتز بدنها حين تسير .

ـ فهمت ، وفي هذا الكفاية ، اعرف بنتا تنطبق عليها هذه الصفات ، محتشمة تفدي زوجها بروحها .

ـ هذا عين الطلب .

ـ وقد تقع في حبك حالما اذكر لها اسمك ، هات صورتك لاريها اياها غداً .

ـ غداً اعطيك صورتي .

ـ غداً ؟ اذا تصورت غداً ، لن تأخذ الصورة الا بعد ثمانية ايام ، هل تنتظر كل هذا الوقت .

ـ كلا لن ننتظر بل نذهب اليها بانفسنا . هل هي من بيت كبير؟

ـ نعم .

ليكن خصرها نحيلا ، ولكني لا اريدها ضعيفة ، ويجب ان يهتز لحمها حين تسير

ـ ابوها غني ؟
ـ غني جداً ، لكنه لا يظهر غناه تواضعا .
ـ وعنده دكاكين كثيرة ؟
ـ عشرون تقريباً .
ـ بيوت ؟
ـ قريباً من الاربعين .
ـ عظيم ، نذهب اليها بعد غد لرؤيتها .
ـ على رأسي ، سأحضر في اليوم المحدد لنذهب سوية ، استودعك الله ابيسوغوم اغا طمن بالك فانا لا اخدعك ، ولست ممن يلبسن قميصا من نار الآخرين ، الى اللقاء بعد غد .
وذهبت السيدة شوشان .

ح

كان مانوك اغا يشرب القهوه في الطابق السفلي ، فلما رأى السيدة شوشان تنزل ترك قهوته وصعد الى ابيسوغوم اغا قائلا :
ـ هكذا سحبني ملكون اغا من يدي ودخلنا الى المقهى الذي كان في السابق خمارة يديرها كوميك اغا رحمه الله ، ولقد مات بعد مرض عضال عجز عنه جميع الاطباء ...
وقطع عليه الحديث دخول زوجته وبيدها صحيفة سلمتها الى ابيسوغوم اغا قائلة :
ـ يبلغك الافندي تحياته الخالصة .
ولما خرجت فتح ابيسوغوم اغا الصحيفة بلهفة وأخذ يقرأ :
« وردنا من وان ما يلي » ليس هذا . لنقرأ ما تحته : « ارسل

الينا أحد اصدقائنا في موش هذا الاعلان ». ولا هذا ، لنر ما بعده : « في ـ بريد الشرق ـ وردت الاسطر التالية . » لنقلب الوجه التالي « ابرق مراسل صحيفة التايمز ما يلي : » لا يوجد اسمي بين هـــذه ... لننظر هذه الزاوية ... « زاد عدد مشتركينا في العاصمة هذا اليوم ، بوصول التاجر العظيم والمزارع الكبير ، الوطني العلامة ، اللطيف المتواضع ابيسوغوم افندي ، على باخرة طرابزون ونزل على الرحب في المنزل رقم ٢ شارع بيرا زقاق الزهور . اننا نغتنم هذه الفرصة لنرحب بالزائر العظيم ابيسوغوم افندي . »

فالتفت الى مانوك اغا وقد استخفه الفرح وقال :

ـ انظر ماذا كتب عني

وأخذ يقرأ ثانية بصوت مرتفع .

وعادت المرأة لتقول:

ـ الافندي يحييك ويطلب قيمة الاشتراك

ـ حالا .

ودفع قيمة الاشتراك الى المرأة التي نزلت راكضة .

ثم سأل مانوك اغا :

ـ هذا الرجل يكتب جيداً ، هيه؟

ـ نعم يكتب جيداً .

ـ انه صحفي محترم .

ـ يوجد كثيرون خير منه .

وفتحت المرأة الباب وبيدها مغلفا وربطة كبيرة سلمتها الى ابيسوغوم اغا قائلة :

ـ الافندي يسلم عليك .

« زاد عدد مشتركينا في العاصمة هذا اليوم بوصول التاجر العظيم والمزارع الكبير، الوطني العلامة، اللطيف ابيسوغوم افندي.. »

ففتح ابيسوغوم اغا الرسالة وقرأ فيها ما يلي :

سيدي المحترم :

علمت بتشريفك الى العاصمة فأهنئك بالسلامة وأرسل اليك عشرة اعداد من صحيفتنا آملا ان تشجعنا باشتراكك فيها ، والا تردنا خائبين لأننا نعمل لصالح الأمة .

مع جزيل الاحترام

مدير التحرير

ـ ماذا افعل بعشرة اعداد ؟...

ـ تقرأها حتى تشبع ...

وعادت المرأة تحمل ربطة اخرى ورسالة سلمتها الى ابيسوغوم اغا الذي فتحها وأخذ يقرأ :

سيدي المحترم :

شجعتني وطنيتك على ارسال خمسة عشر عدداً من صحيفتي راجياً قبولها ، آملا ان تشمل صحيفتنا بتأييدك ورعايتك وبدونها نصبح في أسوأ حال مع الاسف الشديد .

مع جزيل الاحترام

مدير التحرير

ودخلت المرأة حين كان ابيسوغوم اغا يمزق الورقة باستياء ظاهر ثم قدمت له ربطة ورسالة وقالت :

ـ يقدم لك الافندي خالص وده .

فاخذها منها وفض الرسالة وقرأ فيها ما يلي :

سيدي المحترم :

لقد جمعت القصائد التي نظمتها في هذا الكتيب ورأيت واجباً

علي ارسال اربعين نسخة منه ، آملا ان تشرفوني بقبولها وتشجعوني لاتمكن من نشر باقي قصائدي في اقرب وقت . وتفضلوا بقبول ودي العميق، ودمتم باحترام من خادمكم

التوقيع

فطوى الرسالة ووضعها بجانبه . ولكنه فوجيء بالمرأة تدخل عليه ، فسألها وجلا :

ـ هل يسلم علي الافندي المحترم ايضاً ؟

ـ كلا ، بل جاء أحد الحمالين يطالب باجرته .

فاخرج ايسوغوم اغا عشرين قرشاً ودفعها للمرأة

ولما خرجت واغلقت الباب خلفها قال مانوك اغا متمما قصته .

ـ كان بعض المنتخبين في ركن من المقهى يعدون قائمة الانتخاب، وكانوا ممن يتقاضون الرشوة من المرشحين من خصومنا . . .

الا ان المرأة قاطعته بدخولها قائلة :

ـ ترك لك هذه الكتب صبي وقال إن الافندي يسلم عليك ويرجو ان يقابلك اليوم أو غداً .

ولما وضعتها على المنضدة صاح بها غاضباً :

ـ ماذا يمكنني ان أفعل بكل هذه الكتب هل اتجر بها ؟ لا اريدك ان تقبلي بعدها شيئاً ، قولي ان ايسوغوم اغا ليس هنا واصرفي حاملها .

ـ هذا لا يصح . لأن بين الصحفيين من اذا علم بقبولك صحف غيره ورفضت صحفه لحمل عليك في صحيفته باشنع الصفات .

ـ امرنا لله ، اقبلي الصحف اذن وارفضي الكتب ، لقد علقت مرة .

فاحنت المرأة رأسها وخرجت

ـ كانوا يعدون الخطط والخلاف ناشب بينهم ، فبائع النظارات يريد زبونه المفضل ، والخباز يفضل من يشتري من عنده اكبر عدد من الخبز ، والخياط يرى ذلك الشاب الذي يخيط عنده بذتين اهلا لان يكون مختاراً . وصانع الاحذية يؤيد من يصنع له حذاءين في العام . والصحفي يريد ان يرى جميع مشتركيه في الهيئة الاختيارية ، والمحامي يعطي صوته لمن يوكله بدعاوى كثيرة ، والطبيب لاكثر زبائنه مرضا ، والخمار لاكبر سكير . هكذا كانت الحال بينهم .

وقطع حديثه دخول ضيف جديد .

كان الضيف انيق الثياب ابيض الوجه مدوره تحيط به هالة من الشعر الاسود المصفر ، الذي لم يكن يلائم وجهه . فرفع عن رأسه قبعته الطويلة السوداء وحيا الموجودين في الغرفة ، ولدى دخوله خرج مانوك آغا يتمتم ممتعضا :

ـ لم أر طول عمري مثل ما أرى اليوم . أريد ان اقول كلمتين فيقاطعونني ، وما اكاد افتح فمي حتى يدخل أحد هؤلاء الثقـــلاء وينخرط في الكلام ، فيبقى كلامي في فمي .

وسأل الضيف ابيسوغوم اغا بعد أن جلس على حشية على الارض :

ـ حضرتك ابيسوغوم اغا .

ـ نعم ، حضرتي .

ـ شكراً لكونك ابيسوغوم . لقد قرأت عن مجيئـــك في الصحيفة وفرحت لوجود رجل في استامبول يحمل قلبـا سليما . ووطنية صادقة . وأيقنت بوجودك ان في امتنا رجالا صالحين ، فليست

الأمة أمة إن لم يكن فيها رجال صالحون .

ـ نعم .

ـ وبالعكس ، نرى ان الرجال الصالحين الذين ليست لهم أمة ليسوا بصالحين

ـ صحيح .

ـ والاثنان مرتبطان بعضهما ارتباطاً وثيقاً ، إن انفصل احدهما ضاع الآخر .

ـ هو كذلك .

واضاف الضيف بهدوء وصوت عميق :

ـ فالامة التي لا تشجع ابناءها لا تعتبر بين الامم

ـ حسناً

ـ والعامل الذي لا يحصل على اجرته يقتله اليأس ويدفعه الى القاء نفسه في البحر .

ـ هراء .

ـ ارجو المعذرة يا ابيسوغوم اغا اذا كنت اتكلم بجرأة في أول لقاء بيننا .

ـ لا بأس .

ـ لقد قضيت ست سنوات في دراسة الطب في اوروبا .

ـ مهنة حسنة .

ـ كنت خلالها ابيع نومي لكي ادرس واعود الى بـــلدي لاخدم امتي .

ـ هذا واجب كل فرد .

ـ وهأنذا هنا منذ سنتين لم اداو خلالها سوى اربعة مرضى .

فانظر كيف يعاملون الطبيب هنا .

ـ امر محزن ، الا يمرض سكان هذا البلد ؟..

ـ يمرضون ، ولكنهم لا يفكرون في امتهم وابناء جنسهم .

ـ ماذا تقول ؟

ـ نعم ، لأن الارمني اذا مرض ذهب الى طبيب من غير امته ، وهو لا يدري ان مرض الارمني لا يشفيه إلا طبيب ارمني ، ولا يقتنع ان الغريب لا يستطيع ان يشفيه . ويزيد عـــدد الاطباء الأرمن هنا عن الالفين ، بينهم خمسة أو ستة فقط وقل ثلاثة أو أربعة يعيشون كما يرام ، اما الباقون فيفتحون فمهم بانتظار مريض في عياداتهم يدفع لهم قيمة طعامهم .

ـ مساكين .

ـ فماذا تريد من هؤلاء الاطباء ان يفعلوا طالما يعـالج مرضى الامة من قبل غرباء ... آه ، من حب الاجانب ، يا حب الاجانب

ـ ورفع رأسه الى السماء متنهدا وقال ـ متى نتخلص منك ...

ـ حب الاجانب سيء .

ـ خصوصا وان المرض قليل لا يشجع الاطباء ، والأمة التي لا ينتشر فيها المرض لا ينبغ فيهـا اطباء كما في اوروبا ، مثلها كمثل الأمة التي لا ينتشر فيها الحب ، فتفتقر إلى الشعراء المتحمسين ، اذ تخمد العبقرية والحماس ، اذا لم يجدا الحب الكافي .

ـ الحق كله معك .

ـ لا يمكنك يا ابيسوغوم اغا ان تتصور مدى يأسي ، لقدبت العن نفسي الف مرة واشتمها الفي مرة لانني درست الطب ، وليتني مت ولم ادرس الطب ، ... فالمرض بيننا خير من الطب ،

لان الجهل يشجع ، أما العلم فلا ... وقد طغى الاستخفاف على الاتزان ، والمجون على التقى ، والرذيلة على الفضيلة ؛ واشهد الله اني نذرت على نفسي ان جاء يوما مريض من امتي ان انشر اسمه في الصحف واقدسه .

فايقظت هذه الكلمات مواطن العظمة في ابيسوغوم اغا ـ والضرب على نقطة الضعف وسيلة في ايدي المحتالين للسيطرة على عقول السذج من الناس واخذ يتظاهر بالمرض بعد ان سمع ان في ذلك دعاية اخرى لاسمه في الصحف ، وقال :

ـ احسنت بمجيئك اليوم الينا ايها الطبيب . لاني اشعر بضعف منذ ايام .

ـ بماذا تشعر ؟

ـ اشعر بتوعك .

ـ في اية ناحية ؟

ـ اية ناحية ...؟

ـ نعم .

ـ في جميع انحاء جسمي .

ـ كيف هي شهيتك ؟

ـ جيدة .

ـ وهل تهضم ما تأكله بسهولة ؟

ـ بكل سهولة ، ولكني اشعر بوعكة في جسمي

ـ هل تحس بصداع احياناً ؟

ـ نعم .

ـ وهل تشعر بتعب عام أو ما يشبهه ... ؟

ـ تماما .

ـ واحياناً ارتجاف ...

ـ نعم ، نعم ، ارتجاف ... (لنفسه) لم ارتجف في حياتي .

ـ مع الارتجاف حرارة .

ـ بعد الحرارة عرق غزير ...

ـ مرارة في لسانك صباحا ...

ـ نعم ، مرارة في لساني

ـ فهمت ، مرضك بسيط ويزول بسرعة ، لقد تعرضت للبرد

ـ هذا ما خمنته ، اذ تعرضت للبرد فعلا .

ـ كثير من الاطباء لا يفهمـــون المرض ، فيصفون ادوية تسبب مضاعفات خبيثة .

ـ لشد ما سررت ، لانك فهمت مرضي ، هيا اعطني دواء يزيل مرضي سريعاً .

فاخرج الطبيب من جيبه دفتراً - سأكتب لك نوعين من الدواء انت حر في استعمال الانسب لك منهما - واخرج قلمه وكتب بضع كلمات ثم سلم الورقة الى ابيسوغوم اغا قائلا :

ـ هذا ماء احمر اشرب منه كل ساعة ملء ملعقة صغيرة ، انه مفيد ولو انه مر .

ـ حسناً جداً .

ـ نسيت ان اسألك عن طبيعتك .

ـ طبيعتي ... الحقيقة ، انا لا استريح الى صحبة المحتالين ، وما عداهم لا يهمني من يكون ...

فكرر الطبيب سؤاله بتعبير آخر :

ـ هل تخرج كل صباح ؟

ـ لم اتمكن من الخروج يومين اي منذ وصولي الى هنا

ـ احقاً ما تقول ؟

ـ وما الداعي الى الكذب ...

ـ اذن هات الورقة لاكتب لك دواء آخر .

وبعد ان كتب الدواء اعاد الورقة الى ابيسوغوم اغا وقال :

ـ يجب ان تستعمل هذا الدواء اولاً لكي تتمكن من الخروج وبعده استعمل الآخر .

ـ وهل اخرج حتما اذا استعملت هذا الدواء غداً ؟

ـ نعم حتما .

ـ ما احسن هـــذا الدواء ... ولكن ماذا لو جاءني زوار شغلوني باحاديثهم ؟

ـ وماذا يمنع مجيء الزوار ؟

ـ كيف ، ها قدمضى يومان لم يتركوني اخرج ، واذا جاءوا يشغلونني بالحديث شئت أم ابيت . ويجب ان اخرج غداً صباحاً لاتصور .

فاضطر الطبيب الى الافصاح بعد ما سمع من ابيسوغوم اغا :

ـ كيف هي معدتك ؟

ـ كباقي المعدات

ـ منقبضة هي أم لا ؟

ـ من يدري ... انا ما فكرت في ذلك يوما ، وما يعنيني ان كانت منقبضة أو غير منقبضة ، ومن من الناس يفكر فيه ؟

فاجاب الطبيب موضحا :

- كيف هي طبيعتك ؟

- طبيعتي ... الحقيقة ، انا لا استريح الى صحبة المحتالين

ـ ابيسوغوم اغا ، انك تقوم بعمل عظيم كل يوم .

ـ طبعاً ، اقوم بعمل عظيم كل يوم

العمل العظيم ...!

العمل العظيم . .!

فاضاف الطبيب يائسا :

ـ حسناً ، سامر بك غداً لأراك ثانية

ـ طبعاً .

ـ استودعك الله ، لا تجزع لان مرضك يزول بهذا الدواء .

ـ شكراً

ولما هم الطبيب بالخروج بعد أن لبس قبعته استوقفه ابيسوغوم اغا قائلا :

ـ لا تنس كتابتك .

فأعمل الطبيب فكره في هذه الكتابة ، ولما تذكرها اجاب :

ـ نعم ، نعم ، لم انس ، وسأنشر اسمك في احدى الصحف ، استودعك الله .

ـ مع السلامة

بعد خروج الطبيب قال ابيسوغوم اغا مخاطبا نفسه :

ـ خفت ان يقول لي الطبيب « ليس فيك مرض » اذ يظهر التمارض سريعاً ، وقد كان خوفي في غير محله ، فمع انه لم يدرك انني لست مريضاً قال ، إنه يزول بعد هذه الادوية ، ايه ، ايه ، ايها الاطباء ، انكم لا تفهمون شيئاً ، وقد كانت امي محقة في عدم زيارة الاطباء . ليس فيَّ شيء ايها الطبيب وما تمارضت الا ليكتب اسمي في الجريدة ...

ثم استدرك وقد بدا له انه مخطىء :

– من يسمعني الآن ، يصدق انني لست مريضاً بل متمارضا . والحقيقة اني مريض وقد انتابني الضعف منذ عدة ايام ، ولم استطع الاكل ولا النوم ، وبي سعال شديد يبعد النوم عن عيني

آه منك يا حب الظهور ، انك تجعل العقلاء مجانين ، والمجانين عقلاء .

ط

نزل ابيسوغوم اغا ليأكل ، ولما رأى بعض الزوار بانتظاره خرج من المنزل ليتخلص منهم ، لانهم لن يتركوا له وقتاً للطعام ولا للنوم ولا للاستيقاظ .

ليس في شيء ايها الطبيب وما تمارضت إلا ليكتب اسمي في الجريدة ...

وكان قد سمع قبل مجيئه الى استامبول باسم مطعم شهير في شارع بيرا ، يتردد عليه مشاهير الرجال ، فعزم لدى خروجه من المنزل ان يذهب الى هذا المطعم .

ولكنه لم يخط قليلا حتى اعترض طريقه رجل في الخمسين من عمره مهلهل الثياب وقال :

ـ اظنك ابيسوغوم اغا

ـ نعم ، انا هو .

ـ اريد ان اتحدث اليك قليلا .

ـ طيب .

ـ لقد طبعت كتابا ذا طابع جديد في اصول التدريس وأريد أن اعطيك مائة منه ولا اظنك ستلومني على جرأتي ، فالشعب هو الذي يمنحنا الجرأة لندفع عنا غائلة البؤس ، آه ، ان لم آخذ كتبي من المطبعة اليوم ، دفع بي صاحبها الى السجن لانني لم ادفع له بعد مصاريف الطبع ، وهو يطالبني بها كل يوم .

ـ وماذا اصنع بالكتب المدرسية

ـ وزعها على اصدقائك ، ولا ترفضها ، فهي رخيصة قيمة كل واحد منها بستة قروش والمجموع ستمائة قرش وهو مبلغ بسيط بالنسبة لكم .

ـ اين يقع المطعم هنا

ـ من هنا ، سأدلك عليه بنفسي

ـ شكراً

ـ سنمشي ونتحدث . يعتبر المعلمون خداما للأمة ، ولكن الناس لا يعرفون قدرهم ، وبدونهم ليس للامة رقي . ولكن ما الفائدة ، فالجميع يحتقرون العلم ، فيعين المعلم في مدرسة ثم يطرد منها لأنه لم يسلم على رئيسها . واذا خدم عدة اشهر وطالب براتبه يطرد ويقول له المدير « انكم تعيشون على مال الأمة » وانكم عالة عليها ، هيا اذهبوا وابتعدوا عنا » آه ، ابيسوغوم اغا انك لا تعرف ما يقاسيه المعلمون في استامبول ، فهم مثال البؤس والشقاء . ولا اظنك بعد

ـ اظنك ابيسوغوم اغا ؟

ـ نعم انا هو

ـ اريد ان اتحدث اليك قليلا

ما سمعته مني سترفض هذه المائة من كتبي .

ـ هل المطعم بعيد من هنا ؟

ـ لقد اقتربنا . وليس المعلمون وحدهم في هـــذه الحال ، فالمؤلفون والصحفيون والطباعون والكتبيون ، وبكلمة واحدة كل من يشتغل في صناعة الكتب هو في بؤس مرير . ننادي من أجل التقدم فنعود القهقرى ، وندعو الى النور فنرى الظلام ، ونشير الى اليمين فنعود الى اليسار ، نتكلم عن المستقبل فنعود الى الماضي ، آه كلمات صغيرة ولكنها اعمال عظيمة .

ياللأعمال العظيمة ...

ياللأعمال العظيمة ...

ـ هل الطعام جيد في هذا المطعم ؟

ـ جيد جداً ، هل ارسل لك الكتب الى البيت ؟ أو ...

ـ سأعطيك الجواب قريباً ...

وفي هذه الاثناء كانا قد وصلا الى المطعم فقال المعلم :

ـ تفضل ابيسوغوم اغا ، ادخل

فدخل ابيسوغوم اغا ولما لم يجد غير المرايا على جدران المطعم قال :

ـ لقد اخطأنا ، هذا حانوت لبيع المرايا .

ـ كلا ، كلا

فجلسا امام مائدة

ثم حضر الندل وقدم لائحة الطعام

وبعد ان قلبها ابيسوغوم اغا بين يديه رمى بها فوق المائدة .

فسأله المعلم :

ـ ماذا تريد أن تأكل ؟

ـ اريد طعاما باللحم

فنادى المعلم الندل وطلب طعاماً له ولابيسوغوم اغا .

ـ الا تأخذك الشفقة يا ابيسوغوم اغا بالمعلمين حين تسمع عنهم هذا .

ـ وهل يمكن الا يشفق المرء عليهم

ـ ايليق بالامة أن يعيش المعلم فيها كالمتسول .

ـ لا يليق

ـ هل تريد ان احضر لك الكتب هذا المساء

ـ دع هذه المسألة اليوم وسنتحدث بها فيما بعد .

لما احضر الندل الطعام رسم ابيسوغوم اغا شارة الصليب على وجهه واخذ يلتهم الطعام التهاما وهو يقول للمعلم :

ـ هل يشبع الانسان بقطعة من اللحم . ناد هذا الخبيث وقل له ان يحضر ما يكفي .

فجاء الندل بطبق من الرز .

وهنا دخل شاب متوسط القامة مكتنز البدن ، في يده ربطة كبيرة اتجه بها نحو ابيسوغوم اغا وقال :

ـ هل اتشرف بمقابلة ابيسوغوم اغا الذي نزل في استانبول على الرحب والسعة ؟

ولما لم يفهم ابيسوغوم اغا هذا النوع من المجاملة امسك بالملعقة وبدأ يأكل الرز . اما المعلم فانه لم يرد على القادم الجديد خوفا من أن يعيق عمله مع ابيسوغوم اغا .

ـ آمل ان اتشرف بالجلوس الى جانب هذا الرجل اللطيف

الذي قرأت اسمه في الجريدة منذ يومين .

ولما لم يجب ابيسوغوم اغا لانشغاله بالرز ، قال القادم موضحا :

ـ انك ابيسوغوم اغا اليس كذلك ؟

ـ نعم ، انا هو .

فجلس القادم على كرسي .

وحين جاء الندل ليسأله عن طلبه قال وهو يضع الربطة الى جانبه :

ـ بيضا مقلياً

وبعد ان اكل ابيسوغوم اغا الرز طلب سمكاً مقلياً .

ثم قال القادم الجديد :

ـ ايه ابيسوغوم اغا ، يشرفني ان أكون مدعواً على مائدة رجل كريم مثلك . أنا خادمك ، كاتب ناشيء ، لي المام بالشعر . ولقد كتبت بعض القصص أريد ان اهديك عشرين نسخة من كل قصة ...

وما اتم كلامه حتى دخل رجل ثالث وتقدم ضاحكاً وقال لابيسوغوم اغا:

ـ اوه ، ابيسوغوم اغا اهلا بك ومرحباً

ـ مرحبتين .

ـ انني من المحامين المعروفين ، ولما علمت بقدومك عزمت ان اتقدم اليك بالاحترام واطلب توكيلي عنك في دعاواك .

ـ ليست لي دعاوى .

ـ لماذا جئت ان لم تكن لديك دعوى ؟

ـ جئت لأمر آخر .

ـ لا يعقل الا يكون لرجل عظيم مثلك دعوى . واذا صح ففي ذلك انتقاص من شرفك . ويجب ان يكون لامثالك مئات الدعاوى يعيش من فضلك بسببها كثير من المحامين . فان لم يكن لك دعوى لمن الدعوى اذن ؟ للفقير ؟

ـ ليست لي دعوى على أحد

ـ عجيب ، او لا تفكر في الادعاء على احد ؟

ـ ابداً ، وما من سبب يدعوني الى الادعاء على أحد .

ـ وهل السبب ضروري لاقامة الدعوى ؟ اقم الدعوى على أحد ما وكفى .

ـ ايه ، وماذا استفيد ؟

ـ قد لا تستفيد انت ، ولكن يستفيد محاميك ويصلي من اجلك ، وعظماء الرجال الآن يفعلون ذلك . ويقيمون دعاوى شرف على الناس ليعيش محاموهم .

ـ هذه سخافات لا احبذها .

ـ لندع المزاح جانباً يا ابيسوغوم ولنتكلم بجد . سمعت انك تناقشت مع أحد الركاب في الباخرة فأسمعك كلاما نابيا .

ـ ابداً

ـ وانك شتمته ...

ـ قطعا .

ـ وانكما تشاجرتما بعد ذلك .

ـ لم يحدث شيء من هذا .

ـ وانك ضربته على رأسه ...

ـ كذب

لا يعقل الا يكون لرجل عظيم مثلك دعوى

ـ وانه صفعك على وجهك ..

ـ كذب وافتراء

ـ وان ثالثا دخل بينكما ..

ـ لا يوجد ثان ليوجد ثالث

ـ وانه فرق بينكما ..

ـ هراء .

ـ وانه ابعد عنك الآخر...

ـ كذب

ـ وهكذا تمكن من تفريقكما

ـ ما من سبب لذلك

ـ وانك اردت ان تقيم دعوى لانك لم ترض عن هذا التفريق

ـ ما اكبر هذا الكذب...

ـ وانك طلبت محاميا لامعا

ـ كذب ، كذب ،

ـ وانك ارسلت بطلبي ...

ـ ابداً .

ـ لاكون وكيلك ، ولهذا حثت .

ـ لم يحدث شيء من هذا .

وحضر خلال لك شخصان أو ثلاثة اشخاص آخرين كل واحد منهم يريد ان يهدي كتبا الى ابيسوغوم اغا او يحمله على الاشتراك في صحيفته . وتناولوا جميعاً طعاماً طيباً وهم يعرضون عليه طلباتهم.

اما ابيسوغوم اغا فانه بدأ يلعن نفسه الف مرة لمجيئه الى المطعم، ثم نادي الندل وطلب الحساب .

فجاءه الندل بالحساب الذي كان مجموعه اربعين فرنكا أو مايعادل مائتي قرش .

ـ مائتا قرش ... انا لم آكل كل هذا

فقال المحامي الذي يعود اليه امر الدفاع :

ـ نعم انك لم تأكل ولكن ضيوفك اكلوا .

وقال احدهم :

ـ من العار ان يدفع ابيسوغوم اغا قيمة طعامنا

وعقب آخر ،

ـ نعم ،انني اخجل من نفسي ، وكان علينا ان ندعوه الى الطعام

واضاف ثالث :

ـ معذرة ابيسوغوم اغا ، معذرة عن تقصيرنا . سندعوك في المرة القادمة الى الطعام .

ودون ان ينبث ببنت شفة دفع ابيسوغوم اغا المبلغ وخرج من المطعم وقد قرر الا يدخل مطعما بعد ذلك .

ي

عاد ابيسوغوم اغا الى البيت والغيظ يكاد يخنقه من الذين تهافتوا على مائدته في المطعم . فلما وصل الفى طائفة من الرسالات تنتظره ، فقرأها واحدة واحدة ثم مزقها ورمى بها في أرض الغرفة ،وأخذ يطوف في انحائها غاضباً . ووقف اخيراً وصاح :

ـ أيريد هؤلاء ان يسلبوا لي مالي رغم انفي ؟ لم انفرد لحظة منذ وطئت قدمي هذا البلد ، وكأنني جئت لأستقبل هـــذا وذاك

وأوزع عليهم اموالي ، أيحتم علي أن اعيل كل سكان المدينة ؟ ما هذه الوقاحة !... وقاحة لم اسمع ولم ار مثلها في حياتي . ولو اردت أن اطردهم ، لوجب علي أن استأجر أربعة أو خمسة اشخاص يكون عملهم الوحيد طرد القادمين لكثرتهم ... واذا فعلت ذلك ، اذاعوا في المدينة ، انني رجل قليل الأدب ، قليل المال ، وأنا لا اريد أن يحكي عني بسوء ... ما هذه البلية التي ابتليتني بها ، يا الهي ... منذ وطئت هذا البلد ، هذا لا يحتمل ، ويجب ان اعجل في ايجاد الزوجة ، والركوب في الباخرة والهرب . لم تعد اعصابي تتحمل ، اكاد اجن ... وانفجر من الغيظ . أعمل ، وأبذل العرق والدم رخيصا لاجمع شيئاً من الثروة ، لانثرها هنا على المعلمين وغيرهم ؛ هل سمع احد بمثل هذا !..

وفتح الباب بهدوء ودخل مانوك اغا قائلا :

ـ يبدو انك غاضب اليوم

ـ غاضب فقط ، لو أن احداً غيري مكاني ، لمات من الغضب

ـ وماذا جرى يا روحي ؟

ـ وماذا تريد اكثر من هذا ؟ لم يتركوني دقيقة واحدة ، امكث في البيت فينصبون علي يطلبون مالاً ، اسير في الشارع فيلتفون حولي يطلبون مالاً ، ادخل الى المطعم فيتهافتون على مائدتي يطلبون مالاً ، وأصبح عملي الوحيد ، ان اهرب من البيت الى الشارع ومن الشارع الى المطعم ، لاتخلص منهم . قل ارجوك اين اذهب لاتخلص من بين ايديهم ؟

ـ الحق معك ، وهل تركوني دقيقة لأكمل لك قصة انتخابات الهيئة الاختيارية .

ـ ها قد مزقت عشرين رسالة قبل قليل

ـ وماذا يطلبون في هذه الرسائل !

ـ يريدون ان يحضروا معي الى بلدي ليدرسوا اولادي ، أو يهدوني كتبا ، وفي مقابل ذلك يطلبون عشرين ليرة ، وان اشترك مرتين في صحفهم ، و ... ماذا اقول ، ايهم أعد ، وايهم اذكر ، هذا امر لا يطاق .

ـ وماذا يمكنهم ان يفعلوا غير ذلك ، انهم فقراء ، مساكين .

ـ ليعملوا عملا آخر يعيشون منه ، وما ذنبي انا ليتهافتوا علي يا أخي . أتريدني ان ادفع لهم كل ما أملك ؟

ـ لماذا تدفع لهم ؟

ـ يجب على الانسان أن يستحي قليلا . . . فبأي وجه اذهب الى شخص لا اعرفه فأسلم عليه وأطلب منه مالاً لوجه الله ؟... اتفعل انت ذلك ؟

ـ لا أراني الله ذلك اليوم .

وفتح الباب من جديد ودخل شاب في الخامسة والعشرين من عمره وتقدم من ابيسوغوم اغا بخطى متعثرة وسلمه رسالة كانت بيده. وقبل ان يفتح الرسالة صاح غاضباً :

ـ ماذا تريد يا هذا ؟

فاجاب الشاب مرتجفا :

ـ مكتوب بداخلها .

ـ ليكن خارجها وداخلها لك ، ماذا تريد ؟

ـ سأقيم تمثيلية على نفقتي غداً، وهذه بطاقة شرف احضرها لك

فالقى الرسالة في وجه الشاب وقال :

ـ لا اريدها .

فقال مانوك اغا :

ـ لا يليق بك ان تتصرف بغضب .

وقال الشاب :

ـ انني امثل على خشبة المسرح منذ عشر سنوات ..

فصاح ايسوغوم اغا :

ـ ان شئت فلا تمثل .

ـ واخدم امتي .

ـ كان عليك ان تسودها وهذا لا يهمني ، كلام فارغ .

وقال مانوك اغا مؤيداً :

ـ معه الحق ، هذا كلام فارغ .

ـ انني ادرّس في مدرسة الاخلاق منذ عشر سنين .

ـ وماذا يهمني ؟

وايده مانوك اغا بقوله :

ـ نعم ، ماذا يهمه ؟

ـ ارى من واجبي ان ادعوكم لمشاهدة التمثيلية التي انيـــط بي امرها .

ـ لا اريد

وكرر مانوك اغا :

ـ انه لا يريد .

ـ اذا كنت لا تريد بطاقة شرف ، فلمن اقـــدم بطاقات الشرف اذن ؟

ـ قدمها لمن تشاء ، هذا لا يتعلق بي .

ـ ماذا تريد يا رجل؟

ـ مكتوب بداخله

وقال مانوك اغا :

ـ هذا لا يتعلق به ، يا بني .

ـ ارجوك ، لا ترفض هذه البطاقة . لأنك برفضها تجعلـــني اتسكع في الطرقات .

ـ اذهب ، لقد مللت من سماع مثل هذه الكلمات

واضاف مانوك اغا :

ـ لقد مل من سماع مثل هذه الكلمات .

ـ آه ، إن عدت بالبطاقة ، كانت نهايتي .

ـ ليس لدي الوقت للاستماع اليك .

وكرر مانوك اغا :

ـ ليس لديه الوقت للاستماع اليك

ـ ينتهي الامر بليرة واحدة ارجوك ، جئت اليك بأمل كبير ، فلا ترددني خائبا .

ـ اذهب ، اخرج بحق الله ، انا لم احضر لأستمع اليك .

وفي هذه اللحظة دلف الى الغرفة رجل تخلل الشيب شعره وقد تجاوز الخمسين من عمره وقال يخاطب ابيسوغوم اغا :

ـ ألا تخجل من نفسك ؟

فأجاب ابيسوغوم اغا مستغربا :

ـ ولماذا اخجل ؟

ـ لماذا تترك الشاب ينتظر كل هذا الوقت ؟

ـ من يتركه ان ينتظر ؟ من يريده ان ينتظر ؟ اطرده فلا يذهب

ـ تطرده قبل ان تدفع الليرة التي انت مدين بها له ؟

ـ هل انا مدين له ؟

ـ انت مدين له . ولو لم يقل انه سيقبض دينه منك هذا المساء لما طبعت هذه البطاقات وبينما انا انتظر منذ ساعتين أمام الباب لينزل ويدفع لي اجرتي ، تحتال انت على المسكين هنا .

ـ ما هذا ، انا مدين له ؟.. ابداً . .

وأيده مانوك اغا :

ـ ابداً

فقال الشاب مخاطباً صاحب المطبعة :

ـ انا لم اقل ان لي عليه حقا يا سيدي ، وانما قلت انني سأعطيه بطاقة شرف وآخذ منه ليرة ثمنها .

ـ لماذا خدعتني اذن ، يا كذاب ؟

ـ كي لا تتأخر البطاقات

ـ هل أنا لعبتك ؟

وكرر مانوك اغا :

ـ أهو لعبتك ؟

ـ وما الداعي لتكون لعبتي؟

ـ يا شقي ، يا خبيث ، يا قليل الحياء ، يا وقح ...

ـ هذه صفاتك .

ـ بل صفاتك .

ـ كلا بل صفاتك انت

وعلى الأثر بدأ الشجار بينهما ، ولم يتمكن ابيسوغوم اغا ومانوك اغا من التفريق بينهما الا بعد جهد جهيد . وصاح ابيسوغوم اغا بعد تفريقهما :

ـ اذهبا . اذهبا وتشاجرا في الخارج .

ـ لا دخل لك في شجارنا . وليس لك الحق في طردي . لي عند

ـ ألا تخجل انت ؟

هذا الشاب حق وسأدخل اينما اجده .

فقال ابيسوغوم اغا الى الممثل :

ـ اذهب انت اذن .

ـ كيف اذهب ، ها قد رأيت بأم عينك ما فعله بي

واضاف صاحب المطبعة :

ـ اذا لم ينزل هذا ، فلن ازحزح خطوة من مكاني .

وقال ابيسوغوم اغا :

ـ يا شقي ، يا خبيث ، يا قليل الحياء ، يا وقح ...

ـ هيا مانوك اغا لنذهب نحن اذن .

الا ان الممثل تعلق بابيسوغوم اغا ورجاه ان يدفع له ليرة على سبيل القرضة .

وحيال الحاحه ولما رأى الا سبيل الى الخلاص منهما صرف ابيسوغوم اغا باسنانه ودفع الليرة لصاحب المطبعة الذي خرج شاكراً ، وتبعه الممثل وهو يقدم اعتذاره .

ـ ماذا تقول في هذا يا مانوك اغا ؟

ـ لم يبق ما اقوله يا ابيسوغوم اغا .

ـ انزل اذا امرت واغلق الباب واوص بعدم فتحه لأحد .

ـ كما تريد .

ـ لعلي استريح هذه الليلة وأفكر بما علي ان اعمله غداً .

ـ معك حق

ـ هيا اسرع قبل ان يحضروا واحداً اثر واحد .

ـ ها أنذا ذاهب .

ونزل مانوك اغا لينفذ ما أُمر به ، بينما اسند ابيسوغوم اغا رأسه على وسادة ليريح نفسه قليلا .

ك

نام ابيسوغوم اغا عدة ساعات على هذه الحال . ويتبين من حركات الفزع التي كانت تنتابه في نومه ومن كلامه في منامه ، انه كان يحلم بالصحفيين والشعراء ، والمعلمين ، الذين لم يتركوه حتى في نومه ، فكان يقول : « اذهبوا انصرفوا عني ، ولم يبق عندي مال اعطيكم اياه » وبعد مرور ثلاث ساعات على هذا الاضطراب ، فتح

عينيه فجأة وهو يتأوه . وكأن احد الصحفيين يمسك بخناقه ويريد أن يخنقه ، اذا لم يشترك في صحيفته . « يا إلهي ، يا إلهي لا يتركونني ارتاح في منامي ايضاً » . قال هذه الكلمات وهو يفرك عينيه .

ثم وقف وصاح ينادي مانوك آغا ،وطلب منه شيئاً من الطعام. وبعد ان أكل وشرب القهوة ، أخذ النوم يداعب عينيه ، فخلع ثيابه ، واستلقى على فراشه لينام ، ولا داعي لنذكر انه نام نوماً متقطعاً تلك الليلة ، واستيقظ في الصباح باكراً . فغسل وجهه ولبس ثيابه وخرج من البيت الى حانوت السيد تيربنيك ، ليتصور لم يكن الحانوت قد فتح بعد ، لذلك أخذ ابيسوغوم اغا يتجول في أزقة شارع بيرا ، لتمضية الوقت ريثما يفتح المصور حانوته ، وفي الساعة الرابعة (بالعربي)فتح حانوت المصور وصعد الدرج المؤدي الى داخل الحانوت، الذي زين بالصور المختلفة ، وكان السيد تيرينيك في الداخل يقرأ ،فلما رأى ابيسوغوم اغا وضع الصحيفة على المنضدة وقال :

ـ اهلا بك يا ابيسوغوم اغا ، تفضل هنا .

ثم التفت الى كاتبه واشار اليه ان يحضر القهوة .

ـ اسحب صورتي بسرعة لاني على موعد مع بعض الشخصيات الكبيرة .

ـ حسناً .

ـ اريد ان تكون الصورة محترمة . اريد أن اجلس على كرسي ، وان يقف امامي خادمان وخادمة ، ولتكن الصورة كأني في مزرعة . هنا زرع وحصاد ، وهناك بقر تحلب ،هنا يصنعون اللبن الرائب وهناك يقطفون البطيخ ، هنا يصنعون الزبدة وهناك

اريد أن تكون الصورة محترمة ، أريد أن اجلس على كرسي

يسبح البط في البحر ، وفي الغابة يحتطبون ، وبالاختصار كل ما يمكن ان يكون في المزرعة ، يظهر في الصورة .

ـ لا يمكن تصوير ما قلت ، ولكن يمكن ايجاد خدم يقفون امامك باحترام .

ـ ولِمَ لا يمكن ؟

ـ لانه مستحيل .

ـ كيف تصورون العظماء اذن ؟

ـ نصورهم جالسين على كرسي أو واقفين .

ـ كيف يعرف الناس انهم رجال عظماء .

ـ تكون الصورة كبيرة ولامعة .

ـ ستكون صورتي اذن مثلها اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ واقفاً ام جالسا .

ـ كما ترغب .

ـ انت كيف تراها انسب ؟

ـ يليق بك ان تتصور واقفاً .

ـ حسناً ، والخدم امامي

ـ نعم .

ـ اقف وكأنني اوبخهم وهم مطرقون .

ـ عظيم .

ـ ثم اتصنع ضربهم حتى يذهب غضبي .

ـ نعم ما افتكرت .

ـ كيف ترى ثيابي ؟

ـ مثالية .

ـ عندي ساعة ثانية ، أتريد ان اعلقها في مكان ما من سترتي ؟

ـ تكفي ساعة واحدة ، والزائد بارد .

ـ دفعت خمسين ليرة ثمنا لبذتي ، فكيف تظهر جودة قماشها في الصورة .

ـ اطمئن فستظهر .

ـ وكيف تظهر ؟

ـ كن مطمئناً .

ـ اخشى ان يظن الراءون انني البس ثوبا بليرتين .

ـ لا تفكر في هذا ابداً .

حسناً .

ـ انتظرني ريثما احضّر الآلة ؛ وبعد دقائق اناديك .

ـ حسنا

ـ ماذا تقول في حلاق يسرح شعرك وشاربيك ويهذبها ريثما اتم تحضير الآلة ؟

ـ يجوز

فيخرج أحد صناع المحل لينادي الحلاق .

ولم تمض عدة دقائق حتى جاء الحلاق واحنى رأسه لابيسوغوم اغا باحترام زائد .

فقال ابيسوغوم اغا :

ـ تعال اصلح شعري لنرى .

فاجاب الحلاق :

ـ واجبي .

ـ اصلحها جيداً لانني اريد ان اتصور .

ـ على رأسي ايد ...

ـ انني اهتم برأسي كثيراً .

ـ من حقك ان تهتم يا سيدي ... آه ... اذا لم تهتم انت فمن يريد ان يهتم ؟

ـ هيا سرحه .

ـ اعرف انني مخطيء لعدم حضوري لاستقبالك ، ولكن ما العمل ... لم تسمح لي الظروف ، بأداء هذا الواجب ، لاتمكن من ان اعرض على حضرتك ان ...

اعرف انني مخطيء لعدم حضوري لاستقبالك

ـ سنتحدث فيما بعد ، اما الآن فسرح لي شعري فالرجـــل ينتظرني .

ـ دعه ينتظر . ان اطلب من حضرتك اذا امكن ان تقرضني خمسين ليرة .... فانا من ابناء الامة المخلصين .

ـ ماذا تعني بخمسين أو ستين ليرة ؟...

ـ لا تغضب ، ارجوك ، اقرضني خمسين أو ستين ليرة لأحولها الى ابني في باريس ، ليسدد ديونه ويكمل دراسته للطب ، ويعود ، وبعد سنين قلائل اسددها لك مع فوائدها . ولكن ما الفائدة ، لانني اخجل من عرض هذه القضية عليك بعد أن قصرت في المجيء لاستقبالك ، ولو انني فعلت ، لتجرأت على عرض طلبي البسيط ، وبعد هذا التقصير من قبلي ، اصبح الحق معك لترفض طلبي ولواني من صناع الشعب .

ـ ليس هذا وقت القضايا ، وافعل بعدها ما تشاء ، ... مـا هذه المدينة الغريبة ، لا يكاد يراك انسان حتي يطلب منك المال ... يجب اذن الا اسلم على أحد ... يا الهي ... يا ربي ، عفرانك ... لكل شيء حدود ، فهمت الآن ... يجب ان اهرب من المدينة بأسرع وقت ...

وقال كاهن في الخمسين أو الستين من عمره وهو يدخل الى المكان :

ـ يظهر انهم اغضبوا الافندي .

ـ هذا لا يطاق يا ابت .

ـ تحية مباركة ، انك لا تعرفني ، ولكنني اعرف عنك الشيء الكثير ... كيف حالك ؟

ـ الحقيقة انني لست بخير .

ـ لا سمح الله ، ستكون بخير باذن الله ، كنت ارغب في محادثتك على انفراد . (الى الحلاق) اتسمح بالخروج قليلا ؟ لا تنزعج لاني سأتوسط لك عند الافندي لحل قضيتك. يا افندي ، حلاقنا من امتنا المخلصين ويسري فيه الدم الارمني فلا تصدمه برفضك طلبه... (يخرج الحلاق) . ان السبب الذي من أجله اردت ان احدثك على انفراد هو انك ترغب في الزواج ... لِمَ لا . سررت كثيراً حين علمت ذلك . كيف لا أسر . يجب ان يتزوج امثالك ، ليكثر الاطفال الاغنياء في امتنا . علمت انك تريد فتاة جميلة ... ولِمَ لا؟ ولو كنت في مكانك لأردت ذلك . وانك تريدها غنية ... ولِمَ لا؟ اذ الزواج من بنت فقيرة لا معنى له . انا اعرف فتيات من هذا النوع جميلات وغنيات .

ـ شكراً ، سأنظر في الامر يوماً ، والقي عليهن نظرة . فاذا شئت ان انتظر ريثما اتصور ، ثم نذهب سوية ، الحقيقة انني جئت لهذه الغاية بالذات وليس لي أي عمل آخر ، وسأمكث بضعة ايام، فاذا وجدت ، تزوجت وذهبت ، وإلا فسأذهب بدون زواج ، لانهم لا يتركونني ارتاح هنا دقيقة واحدة ، لقد مللت .

ـ الحق معك يا افندي ، ولكن الوقت غير ملائم فالازمة المالية تسيطر على الناس ، مما زاد في فقرهم . وعلى كل حال،سأنتظرك لنذهب الى غايتنا .

ـ جاء هذا اللعين ليسرح شعري فـ..

وهنا دخل السيد تيرينيك وقال :

ـ تفضل الى الصالة

ـ ولكن شعري ...

ـ لا بأس اسرحه انا

ـ وشاربي ...

ـ لا بأس سأصلحهما انا .

وقاد السيد تيرينيك ابيسوغوم اغا الى صالة التصوير .

ولما انفرد الكاهن الى نفسه اخذ يفكر بما يلي ، وسنقرأ هذه الافكار من سحنته فكما ان سحنة الاغنياء تدل على افكارهم، كذلك تدل حركات وجه الفقراء على افكارهم فتقول تقاطيع الوجه مثلا :

ـ جاء هذا الرجل ليطلب مني مالاً ، أو جئت لادفع لهذا الرجل مالاً .

كذلك كان يقول وجه الكاهن « أي سبيل اسلك لآخذ من هذا الرجل قيمة الفحم والحطب لهذا الشتاء » .

كان الكاهن يسبح في هذه الأفكار حين دخل الحلاق قائلا :

ـ ابي المحترم ، لقد عرقلت عملي ، اذ لو لم تدخل لأخذت من هذا الرجل بضع ليرات ، يقال انه يدفع ، يدفع . لقد دفع لجميع الصحفيين والمعلمين .

ـ يا اخي اليس هؤلاء هم السبب في سد باب الرزق على الفقراء امثالنا ، فما تقع اعينهم على غريب حتى يتهافتوا عليه ، من المعلمين الى الصحفيين ... يا للملاعين ...

ـ وما العمل الآن ؟

ـ انا احكي معه لصالحك ، واحك انت لصالحي لعلنا نغنم

منه قطعة .

ـ حسناً جداً .

ـ سيعود الان الى هنا ، فأهمس في اذنه ان هذا الحلاق يعرف كثيراً من اغنياء المدينـــة ويمكنه بكلمة واحدة ان يعرقل مساعيك .

ـ وماذا يريد ؟

ـ انه يبحث عن فتاة غنية

ـ حسنا ، وسأقول له : لا تثق بأحد غير الكاهن .

ـ حسنا جداً .

ـ هذا احسن السبل

ـ انه ساذج

ـ نعم ، سهل الانقياد ، ولكنهم اغضبوه ، افندم ، اغضبوه ، وصلنا متأخرين .

عاد ابيسوغوم اغالى الغرفةالتي يتحدث فيها الكاهن مع الحلاق بوجه باسم :

فقال الحلاق :

ـ معذرة يا ابيسوغوم اغا لازعاجك بقضيتي ، ولكنني فكرت انه بامكاني مساعدتك .

فقال الكاهن :

ـ يجب ان يعلم ابيسوغوم اغا ان حلافنا يدخل جميع بيوت الاغنياء في المدينة تقريباً . ويعرف جميع بناتهم .

ـ ماذا تقول ؟

ـ نعم ، وهو رجل طيب ، لب طلبه ، انه يستحق الشفقة

ـ لا تترك ابانا المحترم ، ان كانت هذه نيتك ، لأن جميع من تزوجوا على يد الأب المحترم ، سعدوا في حياتهم ، وكم يسعدني ان أراك تضع قضيتك بين يديه ، لأنني على يقين من انك ستسعد في زواجك ،

فأضاف الكاهن :

ـ ولكنك ستساعدني في مهمتي يا سيدي الحلاف

ـ بأي شيء اساعدك

ـ لا غنى لي عن مساعدتك .

ـ سأبذل جهدي لمساعدتك

ـ اشكرك ، ان ابيسوغوم اغا منا وما هو بغريب . ولقد جاء بقصد الزواج والواجب يحتم ان نساعده .

ـ طبعاً ، خصوصاً وانني أحبه لانه طيب القلب ، كريم

ـ لا يجوز مدحه امامه ، ومع ذلك انه نادر المثيل

ـ رجل شريف

ـ اذا نظرت اليه ، لرأيت النبل متجسما فيه

ـ ومن يقول العكس ؟ انني لست عدواً له

ـ اعني انه يجب عليك اذا سئلت ان تشهد به شهادة حسنة

ـ بكل تأكيد

ـ وسيكافئك على مساعدتك ، لأنه رجل عاقل

ـ على رأسي ، على رأسي ، آه ، لو تمكن ابني من الحصول على شهادته .

عندئذ دخل السيد تيرينيك قائلا :

ـ بعد خمسة ايام ، ابيسوغوم اغا ، بعد خمسة ايام تكون صورك جاهزة .

- لا يجوز مدحه امامه ، ومع ذلك انه نادر المثيل
- رجل شريف
- اذا نطرت اليه ، رأيت النبل متجسما فيه .

فاجاب ابيسوغوم اغا :

ـ حسنا

ثم خرج من حانوت المصور يصحبه الكاهن والحلاق .

ل

علمت السيدة شوشان من ربة البيت ان الكاهن ذهب الى المصور تيرينيك ليقابل ابيسوغوم اغا هناك . فخشيت ان يفلت الصيد من يدها ويقع في يد الكاهن . ولحقت به مسرعة الى حانوت المصور ، ووصلت في الوقت الذي تمكن فيه الكاهن بلباقته من صرف الحلاق ليقول لأبيسوعوم اغا : « اسمح لي أن انقل اليك حقيقة عن الحلاق ، ، انه رجل صفيق الوجه ، يتعلق بجميع القادمين الى استانبول ليستخلص منهم شيئاً من المال . يا له من رجل خبيث . ومن واجبي بصفتي رجل دين ان الفت انتباهك لتحذر هذا النوع من الناس ، الذين لا هم لهم الا ان يسلبوا عدة ليرات منك . كم اكره هذا النوع من الرجال .

ـ اشكرك على طيبك وانسانيتك

ـ لا تلتفت الى هؤلاء الرجال

ـ كلا

حين وصلت السيدة شوشان ابتدرت الكاهن بقولها :

ـ ابانا ، أي شأن لك أنت مع ابيسوغوم اغا ؟

ـ عمل بسيط .

ـ كلا ، لا شأن لك معه البتة ، أد واجباتك الدينية واترك الناس ، لتؤدي واجباتها حيالهم ايضاً ، هيا ابتعد عن طريقه . ـ هيا

بنا يا ابيسوغوم اغا ـ .

ـ بل ابتعدي انت عن طريقه ، لأن عملنا مع ابيسوغوم اغا يستلزم السرعة ـ هيا بنا يا ابيسوغوم اغا ـ

ويمسك الكاهن بذراع ابيسوغوم اغا اليسرى ويسحبه .

ـ عملك لا يليق بأب محترم مثلك

ـ اسكتي .

ـ لن اسكت

ـ اتركا ذراعي

فاجابت السيدة شوشان :

ـ لن اسكت ولن اترك ، انه حقي

ـ كلا ، بل حقي انا .

ـ انك لا تعرف بنات ابداً ، وانما تريد ان تتعب الرجل المسكين لتحصل منه على عدة مئات من القروش .

ـ لا تصرخي . أتريدينني ان اتركه ليقع فريسة في ايدى المحتالين ؟

ـ الا تستحيان ، لماذا هذا الشجار ؟ لم أعد اريد الزواج .

فاجابت السيدة شوشان :

ـ مستحيل ، يجب ان تتزوج ، ولكنك اذا تزوجت على يدي الكاهن لاصبح شرفك في الوحل

ـ بالعكس ، الشريف من يتزوج على يدي الكاهن ـ هيا بنا يا ابيسوغوم اغا ـ

ـ لن اتركه لك

ـ لنذهب يا ابيسوغوم اغا

ـ لن ادعه يذهب ، لقد وجدت له بنات ، وسنذهب لرؤيتهن

كان هذا المنظر يجري أمام دكان المصور ، وكان المارة يتوقفون للتفرج عليه حتى اجتمع منهم نفر غير قليل ، حين وصل مانوك اغا لأمر هام اجبره على التفتيش عن ابيسوغوم اغا ، فوجده هناك وقد امسك الكاهن بذراعه الايسر والسيدة شوشان بذراعه الايمن وكل منهما يشده الى طرفه ، فأسرع لتخليصه والابتعاد به عنهما بعد ان زجرهما بكلمات قاسية . ثم التفت الى ابيسوغوم اغا قائلا :

ـ الذنب ذنبك اذ احسنت اليهم ، انهم لا يتقربون اليك الا للاستفادة منك .

ـ أحقاً ما تقول ؟

ـ طبعاً . واذا كنت تريد الزواج ، انا ابحث لك عن بنات انتخب منهن ما تعجبك .

ـ اصبت

ـ سأريك كثيراً من بنات الاشراف

ـ ارني

ـ لقد مضى الوقت الذي تتزوج فيه البنات بواسطة الخطابة

ـ أهكذا ؟

ـ حتى انه اصبح عيبا .

ـ ما دام ذلك عيبا ، لا اريد .

ـ سأجد لك فتاة تعجبك .

ـ اشكرك

ـ اعطني خمسين ليرة على الحساب

ـ ماذا يعني ذلك ؟

- لنذهب يا ايسوغوم اغا

- لن ادعه يذهب

ـ اعطني خمسين ليرة

ـ لماذا اعطيك ؟

ـ الله ، الله ، اذا قلت لك اعطني ، يعني انني اعرف ما أقول ، اتظن انني سأهرب بها اذا اخذتها ؟

ـ لن تهرب ولكن ...

ـ اتتردد في اعطائي خمسين ليرة ، مع انني اطلبك بمبلغ كبير ، الم تركم صرفنا من اجلك ؟

ـ مصاريف ... اية مصاريف هذه ؟...

ـ لم اكتبها واحدة فواحدة ، فزوجتي تعرفها . ولكن دع ذلك الآن .

ـ كلا لنبحثها الان. خمسين ليرة ... كم يوما قضيت عندكم؟...

ـ علي دين لرجل ، جاء اليوم يطالبني به ، ويضايقني ، فاذا لم ادفع له اخرجني من البيت . وهذا عار علي ، ، ولا يشرفك انت أيضاً . هات خمسين ليرة الان وسننظر في الحساب فيما بعد .

ـ ما هذه السخافة ؟...

ـ سآخذ منك مكافأة على كل حال ، اذا وجدت لك زوجة ، اعطني خمسين ليرة .

ـ لماذا اعطيك ... ولأي سبب ؟...

ـ يؤسفني انك لا تفهم ، عليك ان تفعل كل ما اشير عليك به ، لِمَ لا تدفع خمسين ليرة ؟

ـ لن ادفع وسأترك بيتك واذهب .

وهكذا كانا يسيران نحو البيت .

ـ ليست الخمسون ليرة بمبلغ كبير لتمتنع عن دفعها . والحقيقة

انني لم اكن انتظر منك ذلك .

ـ ان شئت فانتظر .

ـ لو عرفت ذلك ما طلبت منك خمسين ليرة .

ـ سآخذ صناديقي واذهب .

ـ تستطيع ان تذهب بعد ان تدفع الخمسين ليرة .

ـ لن ادفع .

ـ بل ستدفع .

ووصلا الى زقاق الزهور حيث سبقهما الكاهن والحلاق والسيدة

يصلون الى زقاق الزهور

شوشان .

فلما رآهم ابيسوغوم اغا صاح غاضباً :

ـ اذهبوا ابتعدوا عني ، لا أريد وجوهكم .

ثم قرع الباب ودخل وبدا يحزم امتعته وقد استولت الدهشة على ربة البيت .

فسألته :

ـ لماذا تحزم امتعتك يا ابيسوغوم اغا ؟

ابني ابيسوغوم اغا ، كان مانوك اغا يريد ان يطلب منك خمسين ليرة

ـ سأرحل ، سأرحل ، لقد غيرت رأيي ، عـدلت عن الزواج .

ـ هل اغضبك احد ؟

ـ كلا .

ـ لماذا انت غاضب اذن ؟

ـ لست غاضباً .

ـ ابني ابيسوغوم اغا ، ذهب مانوك اغا ليطالب منك خمسين ليرة هل طلبها ؟

ـ طلبها .

ـ كان ذلك خطأ .

ـ خطأ ؟

ـ نعم ، المبلغ هو مائة وخمسون ليرة وليس خمسون ليرة . اعمل هذا المعروف من اجلنا ، فأنك رجل كبير . وبفضلك نكون قد تخلصنا من ديننا .

بعد ان حزم ابيسوغوم اغا صناديقه نادى ثلاثة حمالين حملهم اياها وخرج معهم .

فتبعه الكاهن والحلاق ومانوك اغا والسيدة شوشان حتى باب الفندق .. ولما دخل ابيسوغوم اغا ، ذهب الجميع ما عدا مانوك اغا الذي رافقه ليصفي معه حسابه .

ولم ير أحد ابيسوغوم اغا بعد ذلك ، غير ان جماعات الصحفيين والمعلمين وغيرهم ، لم تنقطع عن الفندق الا بعد اسابيع عديدة يئسوا خلالها من العثور عليه .

بعد ان حزم ابيسوغوم اغا صناديقه نادى ثلاثة حمالين حملهم اياها وخرج الى الشارع
لقد جاء الى استامبول ليتزوج ولكن الفرصة لم تسنح له ليشاهد
ولو فتاة واحدة . وهكذا هرب بعد ان ترك ذكريات لا تمحى في
الاوساط الادبية .

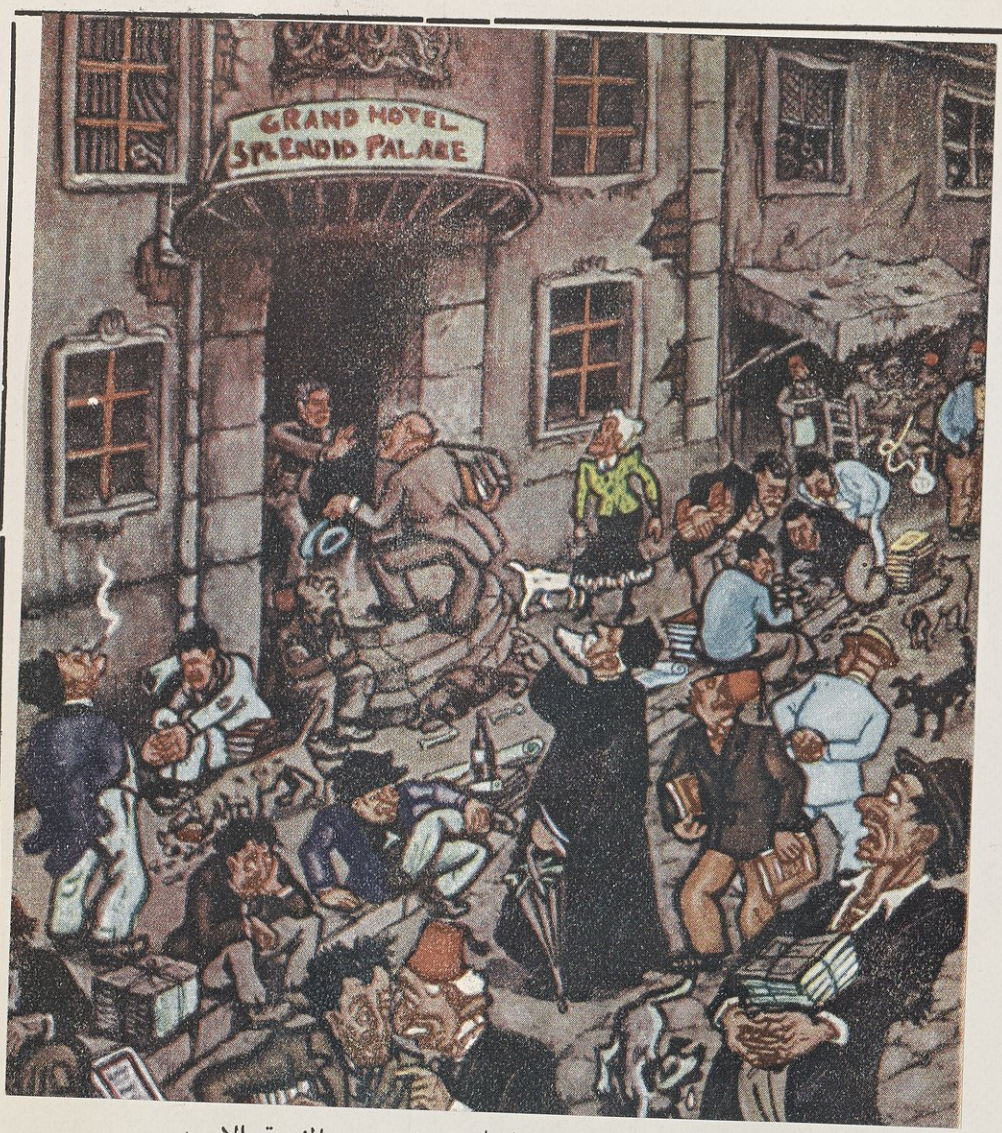

لم تنقطع جماعات الصحفيين والمعلمين وغيرهم من الفندق الا بعد
اسابيع عديدة هم والكتاب والشعراء وقد تأبطوا رزماً

893.7B268
T

JUN 18 1965

Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58669353
893.7B268 T
Mutasawwilun al-shur

893.7B268-T